نسان والكون

في الإسلام

١٩٨٥

دار الثقافة للنشر والتوزيع

الانســـــان والـــكون

الإهـــــــداء

الى

ابنائي من شباب الجامعات

فهرس

الصفـ

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقــــــــدمة

يشكو كثير من الناس من أن القيم السائدة فى مجتمعاتنا المعاصرة أخذت تهتز بشدة ، وهــذا راجع فى الحقيقة الى طبيعـــة العصر ، فانه يتميز بأنه عصر صراع فكرى وعقائدى حاد ، خصوصا حول قضايا المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وفى مثل هذا الجو من الصراع الفكرى يشعر المواطن فى العــالم العربى والاســـلامى بحاجة ملحة الى فهم ثقــافات عصره على اختلافها ، والملاءمة بينها وبين تراثه الدينى والحضــارى الذى نشــأ فى جوه حتى لا يفقد ذاتيته ، خصوصا وأنه يحس من أعماق نفسه أنه ينتمى الى تراث حضــارى أصــيل كان له أكبر الاثر فى تقــدم البشرية ، وأنه اذا كان قد تخلف عن الركب بعض الوقت ، فانه قادر على المضى قــدما الى الامام ليلحق بمن سبقوه على الطريق ..

على أنه فى هذا اللحاق لا يريد أن يقلد تقليدا أعمى ، وانما يريد أن يحافظ على استقلاليته الفكرية ، ولا مانع لديه من أن ينفتح على كل الآراء والمذاهب المعاصرة ، ولكن مع ضرورة التمييز بين النافع منها والضــار ، ومع تنمية قدرته دائما على الابتــكار ، فليس كل ما تنتجه المجتمعــات فى الشرق أو الغرب من أفكار صالحا بالضرورة لمجتمعه ، وملبيا احتيــاجاته الفكرية والروحية ، ومحققا تقدمه الحقيقى لا الوهمى .

وقد ادت سهولة الاتصال بين شعوب العالم فى عصرنا الى غزوا فكرى لمجتمعاتنا ، فوفدت اليها فلسفات شتى ، منها ما يؤمن بالتفسير المادى للوجود ، فليس ثمة الا المادة وقوانين تطورها ، وما العقل الانسانى لا أسمى نتاج للمادة ، والعالم لم يوجد الا اتفاقا أو مصادفة ، فلا خلق ولا خالق . ومنها ما يبدأ سيره من ايمان لا حد له بمنهج العلم التجريبى بحيث يجعل معيار الحقيقة التجربة الحسية وحدها ، ومن ثم لا مجال للتفلسف الذى يحاول تجاوز عالم الحس الى ما وراءه ، فقضايا الفلسفة التى تتحدث عما وراء الطبيعة لا معنى لها ، اذ لا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها . وأصحاب هذه الفلسفة يعنون عادة بالتحليل المنطقى للعبارات والالفاظ على اساس ان كل لفظ ليس له ما يشير اليه فى عالم الحس زائف ، وبالتالى فان القضية التى يستخدم فيها مثل هذا اللفظ فارغة المعنى . ولو امتد منهج هذه الفلسفة الى نطاق الدين لاصبحت بعض قضايا الدين التى تتحدث عن غيبيات لا معنى لها ، ومن هنا تعتبر هذه الفلسفة منتهية بطبيعة منهجها الى تقويض أركان العقيدة الدينية ، حتى وان لم يعن أصحابها بتحديد موقفهم من الاديان . وثمة فلسفات أخرى من فلسفات العصر تنطلق من القول بان حياة الانسان لا معنى لها ولا هدف منها الى الالحاد . ويرى بعض اصحابها وجود الانسان مجرد مأساة ، وأمرا غير مفهوم أو لامعقول . ويرى بعضهم الآخر حرية الانسان باطلاق فى تحقيق ماهيته ، اذ لا اله يخلق وفق ماهية سابقة ، ولذلك يكون الوجود سابقا على الماهية ، ومآل الانسان الى العدم ، فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب . منهم أيضا من يؤكد على عدم الايمان بأى قيمة اخلاقية أو حقيقة مؤكدة ، ويتجهون بعنف الى الهدم ، فتوصف فلسفاتهم بوصف العدمية . وجميع هذه الفلسفات الأخيرة فى رأينا عبثية ، من حيث أنها ترى الوجود الانسانى مجرد عبث ، وتشاؤمية الطابع . ومن أسف أنها شاعت شيوعا غير عادى عن طريق الكتابات الادبية والمسرحية المعاصرة فى أوروبا ، وهى كفيلة بالقضاء على أعظم ما أنتجته البشرية من حضارة ، لأنها تقتل فى الانسان طموحه ، ولا تجعل له هدفا يسعى اليه .

والناس فى مجتمعاتنا بازاء هذا الغزو الفكرى ينقسمون الى ثلاثة أقسام ، فمنهم من يركن الى الاتباع والتقليد لكل ما هو وافد جديد دون

وعى أو تفكير حر ، ومنهم من لا يهتم بالموازنة بين ما يفد اليـــه وما نشـأ عليه ، ويقولون : لا وقت لدينا للعنـــاية بمثل هـــذه الامور ، ويمضون فى سبيلهم غير مكترثين ، ومنهم من يحيون مشكلة الغزو الفكرى ويعـــانونها معاناة حقيقية ، ويريدون ايجاد حل لها ، يكفل عدم ذوبانهم فى فكر الغير ، وضياع شخصيتهم المتميزة .

وفى تصورنا أن الاحتـــكاك المستمر بين الاســـلام وفلسفات العصر كالتطورية والماركسية والوضعية والوجودية وغيرها ، سيعمل مع الوقت على ابراز فلسفة للاسلام جديدة ، تنفتح على كل الآراء ، ولكنهـــا لا تفقد أصالتها وارتباطها بتراث أصحابها العميق الجذور فى الماضى . ونتيجـــة للتقدم العلمى المستمر سيصبح من وظائف هذه الفلسفة الملاءمة بين العلم والايمان على أساس أن العلم لا يتعارض مع الايمان ، والاســـلام نفسه يعين على هذه الملاءمة لانه دين العقل ، ولانه يدعو الى البحث الكونى ، وتسخير خيرات هذا الكون للانسان ، وأن العلم الذى يقودنا الى معرفة الكون يقودنا فى نفس الوقت الى العلم بالله ، ولا تعارض بين العلمين .

وهذا البحث الذى نقدمه للقارىء يسير فى ذلك الاتجاه الذى يجمع بين العلم والايمـــان ، وقد سبق نشره فى مجلة «عالم الفكر» الـــكويتية «المجلد الاول ــ العدد الثالث ــ أكتوبر ــ ديسمبر ١٩٧٠ م» . وقد رأينا أن نقدمه للقارىء مرة أخرى فى هذه الطبعة ، ونرجو أن يجد فيه ما يشبع حاجته العقلية والروحية .

والله ولى التوفيق .

أول مارس ١٩٧٥ م .

ابو الوفا الغنيمى التفتازانى

تمهید

الانسان بطبيعته كائن مفكر ، منذ وجد على الارض وهو دائم التفكير فيما حوله ، وسيظل كذلك طالما هو موجود عليها ، فالفكر الانسانى لم يتوقف — ولن يتوقف أبدا — فى كل المجالات التى يمكن أن يتناولها بالبحث والدراسة ، وليس من المتصور مستقبلا ، مهما تقدم العلم ، أن يزعم الانسان انه احاط بكل شىء علما ، لان الكون أوسع من أن يحيط به عقله ، وهذه الحقيقة نفسها هى وراء تقدم العلم ، فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة ومتناهية لوقف التقدم العلمى عند عصر معين او نظريات معينة .

ونحن لا نقول مع سارتر : «ان الانسان محكوم عليه بأن يكون حرا» (١) ، وانما نقول ان ما هو أكثر حقيقة «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكرا» ، وما دام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا ، فسيظل يتساءل بين الحين والحين عن علاقته بهذا الكون ومصيره .

والانسان هو هو لم يتغير ، كل ما فى الأمر أنه كان قديما ينزع الى التفسيرات الميثولوجية للظواهر الكونية عن طريق الربط بين هذه الظواهر وبين علل خفية أو ارواح خيرة أو شريرة ، يتخيلها دون أن يكون لوجودها حقيقة ، وهو الآن يستعين بنظريات العلم فى تفسير هذه الظواهر نفسها تفسيرا واقعيا ، ولكنه يحس من ناحية أخرى أن العلم لا يفسر له كل شىء ، وأن ما يعرفه عن الكون لا يزال أدنى بكثير مما لم يعرف ، فانسان العصر فى الحقيقة ليس أقل من الانسان القديم اطلاقا لعنان خياله ، ولكن خياله

---

(1) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant, P. 638.

فى هذه المرة — اذا صح التعبير — خيال علمى ينطلق من حقائق العلم الى آفاق المجهول الواسعة .

وهنا قد يتساءل البعض : هل ستستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود أن تصمد فى هذا العصر امام الزحف العلمى بعد أن وطأ الانسان بقدميه سطح القمر؟

واجابتنا على ذلك هى اننا نتوقع ان تقوى هذه النظرة الفلسفية عما كانت عليه من قبل . ذلك ان البشرية قد دخلت عصرا جديدا أبرز ما يميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد فى ثقة الإنسان بنفسه فى مواجهة الطبيعة ، واعتداد بعلمية التفكير فى شتى نواحى الحياة الانسانية ، ومن هذا المنطلق ستنشأ فلسفات جديدة ، ولكنها ستحتاج الى مجهودات غير عادية تبذل لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشكل يفوق تصور العقل ، فهذه الوقائع تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على اى مفكر أن يلاحقها ، واى فلسفة نظرية مستقبلة لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة لن تجد قبولا .

ومن المتوقع ان يتناول المفكرون مستقبلا قضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيرا من قبل ، فبعد أن كان الناس فى القرن الماضى واوائل هذا القرن يوجهون اهتمامهم الاساسى الى الواقع المادى المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الارض ، خصوصا بعد اعلان داروين نظريته فى التطور ، فان الجيل المعاصر والاجيال التى ستليه ستوجه اهتمامها الى الكون الخارجى ، وستتساءل عن حدوده وأبعاده ، وامكان وجود كائنات اخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجى يتناهى أو لا يتناهى ، وهل هناك امكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الاخرى ، وهل لا يوجد فى هذا الكون الا الانسان فقط؟ كل هذه تساؤلات اصبحت تلح على الانسان المعاصر بعد ان نجح فى الوصول الى القمر .

وصحيح أن مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدد الا العلم ولكن الانسان لن ينتظر حتى يجيب العلم عن كل تساؤلاته ، وعندئذ سيلجأ اما الى الاستدلال العقلى ، فيضع أمامه نتائج العلم ليستنبط منها بنظرة

كلية شاملة اجابات على تساؤلاته تلك قد تصبح بعد حين بمثابة فروض جديدة يبدأ العلم منها سيره التى اكتشاف آفاق اخرى مجهولة ، أو سيلجأ الى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسنجد كتابا ومفكرين يطلقون العنان لخيالهم فى شأن الكون ، بل أن بعض العلماء سيكثرون من الفروض العلمية ولكن آراء أولئك وهؤلاء ستكون أدخل فى باب الفن والادب منها فى باب العلم .

مهما يكن من شىء ، فان الفلسفة بنظرتها الكلية الشاملة ، والادب والفن بما يوحيان به من المعانى والافكار ، لن تفقد جميعا أهميتها فى عصر العلم ، بل قد تعين العلم ذاته على مواصلة السير فى طريق التقدم .

ولعله من الملاحظ أنه مع تقدم سير العلوم الكونية نحو اكتشاف آفاق جديدة مجهولة ينشط دعاة المادية مؤكدين للناس وجوب النظرة الى كل تراث دينى على أنه لا مكان له فى هذا العصر . وقد أدى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والاسلامية الى نوع من الصراع — الذى لا مبرر له — بين قيم تراثنا الدينى والحضارى والقيم الجديدة الوافدة التى يؤكد عليها أولئك الدعاة . ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا من عدم التعمق فى فهم طبيعة الاسلام ، والانسياق بدون وعى وراء فلسفات العصر المادية ، وليس من شروط التقدم العلمى أن يقترن بالالحاد ، كما ان الالحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الاسئلة التى يثيرها عقل الانسان الآن فى مجتمعاتنا ، حين يحاول التوفيق بين الاسلام وروح العصر الذى يعيش فيه ، هذه الاسئلة الثلاثة :

(أ) العلم كما نرى الآن يكشف من أسرار الكون ما لم يكن يخطر على بال أحد من السابقين ، والفضل فى ذلك يرجع الى منهجه الذى التزم به ، فهل الاسلام متفق مع العلم روحا ومنهجا ، وما هى مظاهر هذا الاتفاق؟

(ب) اذا كان العلم الحديث قد ساعد ، بما وصل اليه من نتائج فى مجالات شتى ، على تكوين صورة معينة عن هذا الكون ، كما أثبت قدرة

الانسان على تسخير ما فيه من قوى طبيعية وخيرات مادية لمنفعته الخاصة ، فالى اى حد تتوافق هذه الصورة مع تلك التى يمكن ان نستخلصها من المصدر الاول للاسلام ، وهو القرآن الكريم ، عن الكون والانسان؟

(ج) اذا كان العلم يصاحبه الآن كما نرى ايمان شديد بالمادة وغرور جامح بامكانيات الانسان ، فما هى قيم الاسلام الروحية التى تحد من اخطار ذلك؟

لقد اردنا لبحثنا هذا ان يكون محاولة للاجابة عن هذه الاسئلة ، وفيما يلى بيان ذلك .

الإسلام والعلم

لو أنك نظرت الى العلم نظرة فاحصة لوجدت أنه فى أساسه خلق ، فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينة ، وهى ما يعرف بقواعد المنهج العلمى ، فالعلم ليس معلومات بقدر ما هو طريقة أو منهج لتحصيل هذه المعلومات ، وهو بهـذا الاعتبار «قيمة» من القيم ، اذا آمن بهـا المجتمع كأسلوب فى الحياة ، فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى المنشود ، واذا لم يؤمن بها أصبح افراده فريسة للاوهـام والخرافات ، ولم يحققوا لمجتمعهم أى تقدم مادي أو روحي .

وقيمة العلم بهـذا المعنى قيمة إسـاسية فى الاسلام ، فهو يجعل التفاضل بين الناس فى المجتمع على اسـاس منه ، لانه اساس كل عمل ناجح أو سلوك فاضل . والتقوى ـ التى هى أيضا من أسس التفاضل بين الناس فى المجتمع ـ هى نفسها مردودة الى العلم باحـكام الدين ، فرجع التفاضل بين الناس مطلقا الى العلم .

يقول تعـالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر آية ٩) . ويقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (سورة المجادلة آية ١١) .

وقد نبه الاسلام الناس الى أن العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان الناس قديما يعتقدون أن حقائق العلم ثابتة حتى اثبت علماء مناهج البحث فى العصور الحديثة أن نتائج العلوم احتمالية ، اى أن الصدق فيها احتمالى قابل للتغيير ، وهذا يفسر لنا التقدم العلمى المستمر ، وهـذه المعانى كلها متضمنة فى قوله تعالى : «وقل رب زدنى علما» (سـورة طه آية ١١٤) ، ومن ثم اصبح واجبـا على المسلم أن يستزيد من العلم يوما بعـد يوم ، فمسيرة العلم لا تتوقف أبداً .

ومما له دلالة عميقة على ان العلم فى الإسلام على درجة قصوى من الاهمية أن اول ما نزل من القرآن على الرسول (ص) هو قول الله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» . (سورة العلق ، آية ١ — ٥). ولهذا نجد الرسول (ص) يجعل فداء من يقرأون ويكتبون من أسرى بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من ابناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة .

وشرط العلم فى الاسلام ان يكون نافعا ، فقد كان الرسول (ص) يستعيذ من شر ما لا ينفع من العلم ، كما يستفاد ذلك من دعاء مأثور عنه يقول فيه : «اللهم انى اعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن علم لا ينفع» .

والمقصود بكون العلم نافعا فى الاسلام أن ينتفع به الفرد والمجتمع ، وقد روى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أبى بكر بن حزم يقول : «انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه فانى خفت دروس العلم (اى ذهاب اثره) وذهاب العلماء ، وليفشوا (اى العلماء) العلم ، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا (١)» .

من هذا كله تتبين لك مكانة العلم فى الاسلام ، فهو قيمة اساسية من قيمه ، من شأنها كشف مجهول أو استكناه معقول من أجل خير الفرد والمجتمع ، واذا كان الامر كذلك ، فالاتفاق بين العلم والاسلام ظاهر ، ولا مجال للقول بالتعارض بينهما .

---

(١) الشيبانى : تيسير الوصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، جـ ٣ ، ص ١٧٨ .

منهج البحث الكوني

ونحن لو نظرنا الى القرآن الكريم نظرة فاحصة متانية لوجدنا انه يوجه العقل البشري الى استخدام منهج متكامل فى البحث فى الكون (٢) .

(٢) لعله من المفيد فى بداية بحثنا أن نحدد مصدر اصطلاح «الكون» من القرآن الكريم ومعانية عند مفكرى الاسلام :

وأول ما نلاحظه أن القرآن الكريم يشير الى أن التكوين — وهو اخراج المعدوم من العدم الى الوجود — صفة الله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من اجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وارادته (التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «التكوين») . والتكوين مشار اليه فى قول الله تعالى : «اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون» (سورة مريم ، آية ٣٥) . ومعنى ذلك أن الله يحكم بكون هذا الامر فيكونه (ابن حزم ، الفصل ، بهامش الملل والنحل للشهرستانى ، القاهرة ، جـ ٣ ، ص ٥٢) .

ويرى المتكلمون أن الكون مرادف للوجود (التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «الكون») ، وقد يستخدم اصطلاح «العالم» أيضا ويشار به إلى مجموع اجزاء الكون ، اي الى مجموع المخلوقات

ويرى أهل التحقيق ، كما يقول الجرجانى — ولعله يقصد بهم الصوفية من اصحاب وحدة الوجود — أن الكون عبارة عن وجود العالم كله من حيث هو عالم لا من حيث أنه حق . أما أهل النظر فى الفلاسفة فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى المكون عندهم . (التعريفات مادة : «الكون»)فالكون بالمعنى الذى يمكن أن يستخلص من التعريفات السابقة هو مجموع ما تكون بالارادة الالهية فى الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد أن لم تكن موجودة . ولهذا المعنى ما يماثله فى التراث الفلسفى الاوروبى ، فان لفظ «كون» « Universum » يشير الى مجموع الاشياء (Summa rerum) ، أو مجموع ما يوجد فى الزمان والمكان . وعند الفيلسوف ليبنتز أيضا هو جملة الاشياء الموجودة ، واذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد فى أزمنة مختلفة وامكنة مختلفة ، فانه يمكن اعتبارها جميعا عالما واحدا ، أو أن شئت كونا (Theodicée, 1.8) وقد يطلق الكون مجازا على العالم المرئى (Le monde visible) (أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الاسلاميون) . وقد يعتبر الكون (Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم Monde نسبيا :

Comte (A) ; polit. positive, 1,348

اما بالنسبة لنظرية النسبية عند أينشتين فان الكون هو مجموع الأحداث المتميزة بارتباطها الزمكانى (نسبة الى زمان — مكان) ، انظر فى هذه المعانى وغيرها :

Lalande ; Vocabulaire technique et Critique de la Philosophie, Art ; « Univers »

ولهذا المنهج خطوتان : أحداهما يطرح فيها الانســــان جانبا آراءه السابقة عن الكون ، او ان شئت قلت : يطرح فيها التقليد ليتحرر فكره من قيوده ، ويكون أكثر استعدادا للبحث الموضوعي ، والثانية يكون بها صورة عن الكون ، وعن علاقته به ودوره فيه .

فلنشرع في بيان الخطوة الاولى :

يدعو القرآن الكريم الانسان باديء ذي بدء الى طرح التقليد ، وتحرير الفكر من الآراء والمذاهب الســــابقة الموروثة ، وفي ذلك يقول تعــــالى : «واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (سورة البقرة آية ١٧٠) .

وينعى القرآن على أولئك الذين الغوا اشخاصهم وعقولهم فعبــدوا الاحبار والرهبان بمثل قوله تعالى : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله» (سورة التوبة ـــ آية ٣١) .

ويعير القــرآن أولئك الذين عطلوا حواسهم وعقولهم وركنوا الى التقليد الاعمى بأنهم كالانعــــام ، بل هم أضل ســــبيلا ، فيقول تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (سورة الاعراف ـــ آية ١٧٩)

ويقول تعــــالى : «ان شر الدواب عنــــد الله الصم البــكم الذين لا يعقلون» (سورة الانفال آية ٢٢) .

وجعل القــرآن العلم وحــــــده ـــ لا التقليد ـــ السبيل الموصل الى ما يعتقده الانســـــان ويسلك وفقه ، كما يشير اليه قوله تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنــــه مسئولا» (سورة الاسراء آية ٣٦) .

وكثيرا ما تحــدى أولئك المقلدين للعقائد البـــاطلة الموروثة بمثل قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صــــادقين» (سورة البقرة آية ١١١) . وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (سورة الانعام آية ١٤٨) .

وكان من بين التصورات الكونية والعقائد المنحرفة عند العرب في الجاهلية تألية الكواكب ، وعبادة الاصنام ، وتعديد الالهة ، والايمان بالدهر ، وانكار الروح والبعث ، وما الى ذلك . فقد كان العرب – خصوصا في جوف الجزيرة العربية – يعبدون الاصنام ويقدسونها ويقدمون اليها القرابين ، وهذا هو ما يعرف بالوثنية . وكانت في الكعبة اصنام لجميع القبائل ، وكبير الاصنام فيها الصنم المعروف بـ «هبل» . وكان من أصنام العرب ايضا اللات والعزى ومناة . ومن العرب كذلك من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وهنالك قبائل أخرى كان يتوجه بعضها بالعبادة الى المشترى ، او الى الشعرى ، او الى عطارد (٤)

ولعل أولئك العرب لم يكونوا يتصورون الاصنام خالقة لهذا الكون ، وانما كانوا يؤمنون بالله خلقه ، والى هذا يشير صاعد الاندلسي بقوله : «وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة لله تعالى ، وانما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والإصنام الممثلة بها في الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الامم وآراء الفرق من أن عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي **الخالقة للعالم** ، ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة ، ولا دان به صاحب عقل ، دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » سورة الزمر آية ٣ »(٥)

على أنه يجب التنبيه الى انه ليس من الصواب ان يصف صاعد اولئك العرب بأنهم موحدة لله ، لان التوحيد الحقيقي لله ينتفي معه اتخاذ الوسطاء والشركاء . واذا كان العرب قد عظموا اوثانهم وعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، فان هذا من قبيل الوثنية المشركة التي حاربها الاسلام حربا لا هوادة.

---

(٤) أنظر في تفصيل هذا : صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، المكتبة الحيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م ، ص ٥٦ – ٥٧ .

(٥) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

فيها ، فالتوحيد الحقيقي هو الذي اشار اليه القرآن على لسان انبيائه في مثل قوله تعالى : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » إسورة الاعراف - آية ٥٩) .

ومن هنا كان العرب فى جاهليتهم منحرفين فى عقيدتهم عن التوحيد وكانت نظرتهم الى الكون — حتى مع الاقرار بوجود خالق له — نظرة تدل على سطحية فى التفكير ، ولا تخلو من طابع اسطورى يتمثل فى الاعتقاد بأن الاصنام والكواكب تضر وتنفع ، ولذا يتوجه اليها بالعبادة .

وكذلك كان كثير من العرب فى الجاهلية — خصوصا داخل الجزيرة — تسودهم نزعة مادية شكية ، ومن شأن هذه المادية أن تحول بينه وبين قبول الافكار الدينيـة ، فكانوا ينكرون مثلا النبوة والبعث لايمانه بالدهر ، فعرفوا لذلك بالدهرية (٦) .

---

(٦) يذكر المستشرق دى بور فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الاسلام» أن مذهب الدهرية-zurwanismus من زرفان ، «زروان = دهر» من ديانات الفرس القديمة ، وفيه الغيت النظرة الاثنينية للكون(Dualismus) ، وذلك بأن جعل الزمان الذى لا نهاية له «زرفان = دهر» هو المبدأ الاسمى واعتبر هو عين القدر والفلك الاعظم أو حركة الافلاك «تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢ — ١٣» ، وربما عرف العرب شيئا من هذا المذهب عن طريق اتصالهم فى الجاهليـة بالفرس . وقد عنى متكلمو الاسلام بالرد على هـذا المـذهب الذى اصبح مع مرور الزمان فى نظر المسلمين مساويا لانكار الالوهية والحياة الاخرى أو القول بالمادية مع انكار الخالق والقول بقدم العـالم «تعليق الدكتور ابو ريدة ، نفس المرجع ، ص ١١٩ — ١٢٠» . وقد وجدنا لابن رشـد كلاما عن الدهرية يصفهم فيه بأنهم جحدوا الصانع ، ومثالهم كمثل من يرى المصنوعات فلم يعترف بأن المصنوعات بل ينسب ما فيها من الصنعة الى الاتفاق والامر الذى يحدث من ذاته «الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤٩» ، وهو الذى يذكره ابن رشد يذكرنا بآراء بعض الفلاسفة المـاديين فى العصر الحاضر .

وقد صور القرآن عقيدتهم في قوله تعالى : «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية ـ آية ٢٤) .

ويقول صاعد الاندلسي مبينا موقف القرآن من الدهرية «وجـاء نص القرآن بمخالفتهم «اى الدهرية» في البعث والنشور ونبوة محمد «ص» ، فكان جمهورهم ينكر ذلك ، لا يصدق بالمعاد ، ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا»(٧) .

والواقع ان نظرة الدهرية الى الانسان نظرة مادية خالصة فهى تنظر اليه من خلال واقعه المادى فقط ، وتنظر الى الكون على أنه وان كان حادثا مخلوقا الا انه ازلى لا يفنى ولا يبيد ، فليس ثمة حادثا الا الدهر او الزمان ، وليس هناك من بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

ولم تكن هذه النظرة عندهم وليدة فلسفة أو تفكير منظم ، وانما هى مجرد انطباع عن الكون يدل على سذاجة فى التفكير .

ومن هنا وجدت الدعوة الاسلامية صعوبة كبيرة فى الانتشـار اول الامر لما كان موجودا عند العرب من هذه المعتقدات والآراء المادية ، ولمـا كان مقترنا بها من عناد شديد وميل الى الجدل وعدم التصديق بسهولة ، وهذا يفسر لنا لماذا طولب الرسول «ص» بخوارق العادات ، على نحو ما يشير اليـه قوله تعالى : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنـا من الارض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالهـا تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينـا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السـماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسـولا» «سورة الاسراء ـ آية ٩٠ ـ ٩٣» .

ولم يكن طلب خوارق العادات من الرسول «ص» على هـذا النحو

---

(٧) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

الا عنادا أو صدا عن الدعوة ، فالقرآن نفسه قد انطوى على الآيات الناطقة بصدق الرسول «ص» فيما جاء به وصلاح دعـوته للفرد وللمجتمع ، ولو أن أولئك المعاندين حرروا عقولهم من أوهامها ، ونظروا الى القرآن نظرة عقلية ، لما طالبوا الرسول «ص» بالآيات أو الخوارق ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالي : «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» «سورة العنكبوت آية ٥٠ — ٥١» .

وقد حارب الرسـول «ص» فيما حارب من اعتقادات الجـاهليين التنجيم والكهانة والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعـارض مع العلم الصحيح . فقد نهى الرسول «ص» نهيا صريحا عن اتيان الكهان والعرافين(٨) الذين يزعمون لانفسهم قدرة على الاخبـار عن الـكوائن فى مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الاسرار ومطـالعة عالم الغيب ، كما ابطل «ص» الايمان بالغيلان(٩) .

وما له دلالة فى هذا الصدد ايضا ان الرسول «ص» نهى عن الربط بين ظواهر الطبيعة وبين أى أسـباب وهمية لا تمت اليهـا بصلة(١٠) ،

---

(٨) انظر : الحـافظ المنذرى : مختصر صـحيح مسلم بتحقيق محمد ناصر الدين الالبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت ، الحديث رقم ٣٣٣ فى النهى عن اتيان الكهان ، ورقم ١٤٩٦ فى النهى عن أتيان العراف .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، الحـديث رقم ١٤٨٩ ، يقـول المحقق : «قال جمهور العلماء : كانت العرب تزعم أن الغيـلان فى الفلوات ، وهى جنس من الشـياطين تتراءى للنـاس وتتغول تغـولا ، أى تتلون تلونا ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فأبطل النبى «ص» ذلك» .

(١٠) قارن هنا ردود ابن حزم الاندلسى على أصحاب التنجيم والسحر وعلى أولئك الذين يتصورون الـكون تصورا ميثولوجيا. وذلك فى الفصل ، جـ ٥ ، ص ٢ وما بعدها ، جـ ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها ، وهى تدل على علمية التفكير التى يمكن أن تستمد من أصول الاسلام .

فيوم توفى ابنه ابراهيم حدث كسوف للشمس ظنه الناس معجزة تحدث لهذه المناسبة ، فقال «ص» : «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» .

هذا ، وقد ذكر القرآن الكريم طائفة من الديانات السماوية وغير السماوية التى عرفها العرب فى جاهليتهم ، والتى انحرف بها أصحابها عن التوحيد الصحيح الى الوان من الشرك والوثنية ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد» «سورة الحج آية ١٧» . وقوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم» «سورة البقرة — آية ٦٢» .

وتعرض القرآن لذكر مثل هذه الديانات والمذاهب لابد وان يثير عند المسلم تساؤلات كثيرة حولها ، وحول الفرق بين كل منها وبين العقيدة الاسلامية .

ولما كانت تلك الديانات والمذاهب لها تصوراتها للكون وعلاقة الانسان به ، فانه يمكننا القول بأن القرآن قد فتح أمام العقل بابا واسعا للنظر فى الكون نظرة أساسها المقارنة بين ما جاء به وما جاءت به تلك الديانات والمذاهب القديمة .

والقرآن يلجأ دائما الى الحجة العقلية فى الرد على المخالفين لعقائده وتفنيد دعاواهم . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد — على سبيل المثال لا الحصر — الى بعض ردود القرآن على مخالفيه :

فمن ذلك رده على مؤلهى الكواكب من الصابئة بمثل هذه الآيات التى تصور حال ابراهيم عليه السلام حين نظر الى الكون واهتدى الى وجود خالق له بعقله ، وهى :

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ،

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهـــدنى ربى لاك
من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ،
افلت قال يا قوم انى برىء ممـــا تشركون . انى وجهت وجهى للذى ؛
الســـماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين» «ســـورة الانعـــام
٧٥ ــ ٧٩» .

وهذه الآيات الكريمة لا تصلح فقط للرد على مؤلهة الكواكب ، و
هى ــ فى رأى الفيلسوف ابن رشد ــ تشير الى علم خص الله به ابرا
عليه السلام ، وهو علم النظر فى الـــكون ، واعتبـــار الموجودات في
بالعقل(١١) .

ويرد القرآن كذلك على من يعتقدون الآلهة (١٢) بمثل قوله تعالى :
كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» «سورة الانبياء آية ٢٢» .

ويرى بعض المتكلمين أن هذه الآية انمـــا تشير الى الدليـــل الد
المعروف عندهم بدليل التمانع ، ومؤداه : لو كان للعالم صـــانعان ، فعن
اختلاف هذين الصانعين ، كأن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكين
أو يريد أحـــدهما احياءه والآخر اماتته ، فاما أن يحصـــل مرادهما أو ،
احدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

---

(١١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القـــا
١٣١٠ هـ ، ص ٢ ص ٣ .

(١٢) كانت هناك قديما مذاهب تعدد الآلهة ، ابرزها مذاهب المج
فى فارس على اختلاف صورها ، وكانت هذه المـــذاهب تنطوى على الا
بأصلين اثنين مدبرين للعالم : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، أو يز
واهرمن . وقد عرض كتاب الفرق من المسلمين لهذه المذاهب بالرد والتف
أنظر عنها ، الشهرستانى ، الملل والنحل ، القـــاهرة ١٣١٧ هـ ، بهـــا
الفصل لابن حزم ، ج ٢ ، ص ٧٢ وما بعدها . وانظر ايضا ردود ابن
على هذه المذاهب فى الفصل ، ج ١ ص ٣٤ وما بعدها .

والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، ويستلزم أيضا عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون الها .

واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر ، والآخر عاجزا لا يصلح للالهية(١٢).

يريد القرآن اذن لعقل الانسان أن يفكر وان يستنبط من انتظام أمر العالم وحدة صانعة ، فتدبير هذا الكون لا يكون لالهين أو أكثر لما يترتب على ذلك من الاختلال فيه . والى هذا المعنى الاشارة أيضا فى قوله تعالى : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون» «سورة المؤمنون آية ٩١» .

ويرد القرآن كذلك على من ينكرون البعث ، أو بعبارة أخرى ينكرون أن يكون لوجود الانسان فى هذا الكون غاية ابعد لا تتحقق الا فى حياة أخرى بعد هذه الحياة ، ويخاطبهم بنوع من الاستدلال المباشر ، وهو أنه ما دمتم قد سلمتم بأن الله خلق الانسان أول مرة ، فمن التناقض أن لا تسلموا بأنه قادر على خلقه مرة أخرى ، فالله لا يكون خالقا وغير خالق فى آن واحد ، ثم اى الخلقين اصعب ، خلق السماوات والارض أم خلق الانسان ؟ كل هذا خطاب صريح للعقل يتبين من قوله تعالى :

«أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون» «سورة يس آية ٧٧ — ٨٣» .

---

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية ، المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٤٠ .

نخلص مما سبق الى القول بأن القرآن الكريم اراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة التى سبقت نزوله كالتصورات الميثولوجية التى تفسر الكون تفسيرا اسطوريا ، وكالوثنية والشرك وعبادة الافراد وتعدد الالهة ، وتاليه الدهر او الطبيعة ، وانكار الغائية فى الكون وفى حياة الانسان ، وانكار البعث وما الى ذلك .

فاذا تخلص العقل الانسانى عن مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التى لا يقوم عليها دليل او برهان ، استطاع ان يقبل متحررا من كل قيد على النظر فى الكون نظرة موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له ، والى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه ، ورسالته فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا يقودنا الى الكلام عن الخطوة الثانية فى المنهج الذى يهدينا القرآن اليه ، وسنحاول ان نلقى فيما يلى مزيدا من الضوء عليها :

• • •

الخطوة الثانية فى منهج البحث الكونى تتمثل فى اصطناع الاستدلالين القياسى والاستقرائى .

على انه يجب ان ننبه بادىء ذى بدء الى ان القرآن ليس كتابا فى المنطق ، ولكنه يحتوى على الاصول العامة للدلائل العقلية ، اما تفصيلاتها فليس من وظيفة القرآن ان يتعرض لها ، ويكفى القرآن انه ينبه الى مثل تلك الدلائل الاجمالية ليمضى العقل البشرى بعد ذلك الى وضع تفاصيلها وكشف قوانينها وطرق استخدامها .

ومما يلاحظه القارىء للقرآن ان الخطاب فيه موجه اساسا الى العقول السليمة بأوضح استدلال وأيسره ، والى القلوب الصافية بأبلغ بيان وأوجزه . ولا يعلو عليه فى هذا شىء مما كتب الفلاسفة والمفكرون على اختلاف بيئاتهم وازمانهم ، بدليل ما احدثه من الاثر الفكرى الهائل فى حياة البشرية منذ نزول الوحى به الى اليوم .

وقد فطن الى ذلك كبار المشتغلين بالفلسفة والمعقولات من المسلمين

فذكروا انه قد انطوى على مختلف أنواع الحجج والبراهين بحيث لا يمكن أن يزاد عليه فى هذا شيء ، ومن هؤلاء الامام الغزالى اذ يقـول : «وأول ما يستضاء به من الابواب ، ويسلك من طريق النظر والاعتبار ، ما أرشد اليه القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان»(١٤) .

ويقول الامام فخر الدين الرازى ، احد ائمة الاشعرية من المتكلمين فى كتابه «الاربعين» فى الكلام : «اقر الكل بأنه لا يمكن أن يزاد فى تقرير الدلائل «العقلية» على ما ورد فى القرآن»(١٥) .

والحقيقة أننا لو نظرنا الى القرآن نظرة متأنية لوجـدنا أنه ينبه العقول الى استخدام أنواع الاستدلال العقلى المختلفة ، مباشرا كان أو غير مباشر فهو كما يدعو الى استنباط نتيجة من مقـدمة أو مقدمات ثبتت صحتها فى معرض الاستدلال على العقائد النظرية ، (انظر الايات من آخر سورة يس آية ٧٧ ـــ ٨٣) نراه يدعونا ايضا الى استخدام المشاهدة الحسية واستقراء الجزئيات من عالم الطبيعة ليصل بنا الى معرفة القوانين العامة التى تسير هذه الطبيعة بمقتضاها .

فمن الآيات التى تدل على استخدام القياس العقلى قوله تعـالى : «فاعتبروا يا أولى الابصار» (سورة الحشر ـــ آية ٢) .

ويرى الفيلسوف ابن رشد أن الاعتبار المشار اليه فى هذه الآية هو القيـاس بنوعيه ، العقلى والفقهى (١٦) . فكأن الآية اذن تأمرنا على سبيل

---

(١٤) احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(١٥) بدر الدين الصنعانى : ترجيح اسـاليب القرآن على اسـاليب اليونان ، ص ١٧ .

(١٦) القياس لغة : التقـدير ، يقال قست النعل بالنعل اذا قـدرته وسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء الى نظيره (تعريفات الجرجانى ، مادة «القياس») والقياس عند المناطقة اصطلاحا هو قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتهـا قول آخر . ومن أمثلة القيـاس العقلى قولنا : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حـادث ، فلزم ان كل جسم حـادث ، ومن أمثلة القياس الفقهى قولنا : كل نبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، فلزم ان كل نبيذ حرام (المستصفى للغزالى ، ج ١ ، ص ٣٨ ـــ ٤٢) .

الوجوب الوجوب باستخدام القياس بنوعيه المشار اليهما . وفى الحقي
أن فهم ابن رشد لمعنى الاعتبار فى هذه الآية ليس غريبا ، لان الاعتبار
«النظر فى الحكم الثابت لاى معنى ثبت ، والحاق نظيره به ، وهذا ه
القياس» (١٧) ، على حد تعبير الجرجانى فى «التعريفات» .

ومن الآيات التى تدل على استخدام الاستقراء ، والنظرة العلـ
الفاحصة عن الاشياء وكيف تتركب ، قوله تعالى : «افلا ينظرون الى الا
كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت ، وا
الارض كيف سطحت» (سورة الغاشية ، آية ١٧ — ٢٠) .

وتأمل كلمة «كيف» فى هذه الآيات لترى أنها تعبر عن روح الـ
الحديث كله ومنهجه . ذلك أن العلم — فى مفهوم علماء مناهج البحـ
المحدثين — هو أجابة عن السؤال «كيف» ، وليس أجابة عن السؤ
«لماذا» . بعبارة أخرى العلم يعنى ببيان كيف تتركب الظاهرة ، ولا يعـ
بالبحث عن الغاية منها .

فالقرآن حين يدعونا الى البحث فى كيفية خلق الحيوان والكواكـ
والارض انما يمدنا بالمنهج الصحيح للبحث الاستقرائى فى علوم شـ
كعلوم الحياة والفلك والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها ، دون أن يكو
القرآن نفسه كتابا يتناول موضوعات هذه العلوم الجزئية .

ومما له دلالة فى هذا الصدد ايضا قول الله تعالى : «ان فى خـ
السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البـ
بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبـ
فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض
لآيات لقوم يعقلون» (سورة البقرة ، آية ١٦٤) . فهذه الآية الكريـ
تدلنا على أن افراد البشر الذين يعقلون — أى يستخدمون عقولهم استخدا
سليما — هم الذين ينظرون فى خلق السماوات والارض ، وفى الظواهـ

---

(١٧) تعريفات الجرجانى ، مادة : «الاعتبار» .

الكونية على اختلافها وهم الذين يربطون فى نظرتهم تلك بين الاسباب والمسببات فيعرفون كيف خلقت السماوات والارض ، وكيف يتعاقب الليل والنهار ، وكيف تسير السفن فى البحار ، وكيف ينزل المطر ، وما هى عوامل نزوله ، وكيف يرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ويعرفون كيف تحيا الدواب على هذه الارض وعلل حياتها ، وما الى ذلك .

وينبه القرآن الى أن النظام الكونى مطرد السنن له قوانين لا تتبدل وهى ما نصل اليه بالاستقراء العلمى القائم على المشاهدة الحسية ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» «سورة يس ، آية ٤٠» .

وكذلك الاجتماع البشرى له قوانين لها نفس الاطراد والثبات ، ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء التاريخى ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد — آية ١١) «سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (سورة الفتح — آية ٢٣) ، «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (سورة الروم — آية ٣٠) .

على أن الانسان لا يستطيع أن يصل من التأمل فى الكون الى معرفة نظامه وقوانينه الا اذا وثق بنفسه أولا ، وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لادراكه وبحثه ، وبأن ظواهره ليست بالشىء المبهم الغامض الذى لا يفسر ، وبأن فى مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها .

من اجل هذا ذكر القرآن للانسان أن الكون كله مسخر له ، وتأمل فى قوله تعالى : «وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعا منه» (سورة الجاثية — آية ١٣) ، وقوله تعالى «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها

وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقى ة
الارض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلاما
وبالنجم هم يهتدون . افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وأن تعد
نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم» (سورة النحل - آية ١٢ - ٨
لترى أن توجيه القرآن فى هذا الصدد مضاد تماما للتصورات الكو
الميثولوجية القديمة التي جعلت الإنسان البدائي يستشعر الخوف
الكون ، ويعتبره خارجا تماما عن نطاق عمله وقدرته ، ويفسر ظواه
المختلفة بعلل وهمية خيرة او شريرة ، أو آلهه يسترضيها بألوان
الطقوس البدائية .

ان تأكيد القرآن على أن الكون كله مسخر للانسان هو فى نف
الوقت تأكيد على روح المنهج العلمى الصحيح الذى يحاول دائما استكش
ماهو مجهول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدرة الانس
وبالعلم فى مواجهة الطبيعة .

وثمة ملاحظة هنا على جانب كبير من الاهمية وهى أنه حينما يك
الحافز الى الاستفادة من الكون بمنهج العلم هو عقيدة الانسان الدينية
ورغبته فى التقرب الى الله ، والظفر بثوابه فى حياة أخرى ، فانه يك
حافزا قويا للغاية . ومن الآيات القرآنية ذات الدلالة العميقة فى هـ
الصدد قوله تعالى : «او لم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما
الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنو
(سورة الاعراف - آية ١٨٥).

لقد أعتبر الله تعالى العلم بالمخلوقات على اختلافها من أهم الاع
الصالحة التى يجب على المسلم ان يحسب لها حسابا فى ميزان أعماله
الحياة الإخرى ، فعليه اذن أن يبذل قصارى جهده من أجل استكناه ال
وما فيه من موجودات ، وذلك قبل أن يفاجئه أجله وهو أغفل ما يكون

ولهذا ذهب بعض علماء العقائد فى الإسلام الى حد القول بأن الاست
العقلى من الأصول المقررة فى الأسلام ، فالى جانب المعتزلة الذين أو
معرفة الله بالعقل ، نجد الأشعرية أيضا يوجبون على كل مكلف الاست

على وجود الله بعقله ، ويقولون : لا يكون مسلما الا من استدل (١٨) .

ويمكننا القول مما سبق كله بأن القرآن الكريم قد حث الانسان على اصطناع منهج العلم الذى يتلخص فى النظر الى الكون بالقياس والاستقراء أو بهما معا (١٩) من اجل الوصول الى معرفة قوانينه العامة ، ثم مواصلة السير بعد ذلك الى معرفة الله .

ويمكننا ان نوضح ذلك بالرسم البيانى التالى :

	استدلال قياسى		استدلال استقرائى	
معرفة الله	←	معرفة الكون	←	النظر الى الكون
(صانع الكون)		وقوانينه العامة		(السماوات والارض)

هناك اذن مرحلتان يسير فيهما الناظر الى الكون .

المرحلة الاولى يستخدم فيها الناظر استدلالا استقرائيا يكشف به عن الاسباب والمسببات ، ويتوصل منه الى صياغة القوانين العامة التى تخضع لها الموجودات .

والمرحلة الثانية يستخدم فيها تفكرا عقليا اساسه الاستدلال القياسى وينتهى منه الى اثبات وجود صانع مدبر للكون عن طريق ما يشاهده فيه من غائية الظواهر التى لا تفسرها له المصادفة .

وبهذا ينطلق الناظر من معرفة المصنوعات الى معرفة الصانع ، و «كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم» (٢٠) على حد تعبير ابن رشد .

---

(١٨) ابن حزم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

(١٩) المنهج العلمى لا يكمل الا باستخدام الاستقراء والقياس معا . اذ انه بعد أن يتوصل العالم من استقراء الجزئيات من عالم الطبيعة الى القانون العام أو القانون العلمى ، يعود فيطبق هذا القانون على جزئيات جديدة مستخدما القياس ، فالعالم لا غنى له عن استخدام الاستدلالين الاستقرائى والقياسى معا .

(٢٠) فصل المقال ، ص ٢ .

والى هذا المعنى نفسه يشير احد العلماء المعاصرين وهو البرء
ماكومب ونشتر بقوله : «ان الانسان لا يستطيع ان يدرس اعمال أى صانع
من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى ابدع تلك
الاعمال» وكذلك نجد اننا كلما تعمقنا فى دراسة اسرار هذا الكون ازدد
معرفة بطبيعة الخالق الاعلى الذى أبدعه (١)

ولقد أشار القرآن الى المرحلتين اللتين ذكرنا فى قوله تعالى : —

«ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى
الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق
السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار»
(سورة آل عمران — آية ١٩٠ — ١٩١) .

وقد يقف بعض الناظرين عند المرحلة الاولى ، ولا يتجاوزونها الى
الثانية ، وهؤلاء «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم
غافلون» (سورة الروم آية ٧) ، انهم قد وصلوا الى منتصف الطريق
وفاتهم الغرض البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين
عن الحقيقة ، محصورين فى دائرة المادة لا يستطيعون الخروج منها الى
ما وراءها آثروا النفع العاجل على النفع الآجل ، وشغلوا بالوسائل عن
الغايات «ذلك مبلغهم من العلم» (سورة النجم — آية ٣٠)

وما اجمل هذا المعنى حين يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى فى
«الحكم» بقوله : «الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون
بمحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته»(٢) .

---

(١) انظر مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين نشرها جون كلوفر
مونسما فى كتاب بعنوان : «الله يتجلى فى عصر العلم» ، الترجمة العربية
دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٢) شرح الرندى على الحكم ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٧

أما ما يراه البعض من ضرورة الموضوعية والاعتماد على التجـــربة الحسية واخضاع الظواهر للقياس الكمى فى البحث العلمى ، فهذا ولاشك من خصائص المرحلة الاولى ويبقى بعد ذلك ان يسير العالم من المرحلة الاولى وهى العلم ، الى المرحلة الثـــــانية ، وهى الايمان ، وذلك اذا أراد أن يحقق انسانيته ، وأن يجعل لحياته معنى . ان نهاية العلم فى الحقيقـــة هى بداية الايمان الصحيح لا الايمان التقليدى ، وتأمل عمق المعنى فى قوله تعــــالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ــ آية ٩) ، وقوله تعالى : «انما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر ــ آية ٢٨).

صورة الكون

والان بعد ان تبين لنا اتفاق الاسلام مع العلم روحــــا ومنهجا ، وانه يوجه العقل البشرى الى خطوات منهج متكامل للكشف عن أسرار الـكون وما فيه من كائنات وقبل ان نمضى فى الحديث عن صــــورة الكون ومكان الانســان فيها فى القــرآن الـكريم ، لنرى الى أى حــد تتفق مع تلك التى يمدنا العلم الحديث بها ، نحب ان ننبه القارىء الى حقيقة هامة ، وهى أن القرآن الكريم ليس كتــاب علم يشتمل على نظــريات فى علوم الـكون .. ان كل ما يشتمل عليه القرآن متعلقا بالكون ونشاته وتطوره لا يعدو الحقائق العامة المجملة التى يأتى العلم بعد ذلك ليكشف عن تفصيلاتها ، ومن هنـــا لا نرى أن يقحم الدين بمناسبة وغير مناسبة فى تفسير الظواهر الكونية ، اذ ليس هذا من شان الدين .

ونذكر هنا قول الرسول (ص) : «انتم اعلم بشئون دنياكم» .

والحقيقة هى ان القرآن حينما يشير الى الظواهر الكونية انما يشير اليها على سبيل ايقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرهــا التفسير العلمى الصحيح فعباراته أشبه شىء بالومضـــات القوية التى تنير أمام هذا العقل السبيل الى التوصل الى علم صحيح بالكون وقوانينه .

ومن المعروف ان العقل البشرى يثير بطبيعته تساؤلات عــــدة حول الـــكون :

هل الكون حادث أو قديم ؟ واذا كان حادثا فكيف حدث ؟ وهل يتناهى أو لا يتناهى ؟ وهل توجد أكوان أخرى أو لا توجد ؟ وما هى علة ما فى هذا الكون من النظام والاحكام ؟ وهل له غاية ؟

كان لابد للقرآن الكريم من أن يلبى احتياجات البشر العقلية فى ا
على مثل تلك التساؤلات .

لقد قرر القرآن الكريم حقائق كثيرة تتعلق بالكون اهمها انه حـ
مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، وليس ثمة موجود
أبدى الا الله «الخالق البارىء المصـــور» (سورة الحشر ــ آية ٢٤
«بديع السماوات والارض» (ســورة البقرة ــ آية ١١٧) ، و «هـــو
والاخر» (سورة الحديد ــ آية ٣) ، واليه ترجع الموجـودات كلها من
هو علتها الاولى ، لقوله تعالى : «وان الى ربك المنتهى» (ســـورة النـ
آية ٤٢) ، والمتصفح للقرآن يرى انه يقرر فى وضوح لا لبس فيه الثنائيـ
الله والعالم(٣م) . ومن الحقائق عن الكون انه غير مصور فى مداركنا .

(٣م) على الرغم من وضوح هذه الثنائية بين الله والعالم فى نصـ
القرآن ، ذهب بعض مفكرى الاسلام الى القول بفيض العالم او صـــ
عن الله ، وهذا هو عين مذهب أفلوطين السكندرى فى الفيض أو الصـ
(Emanation) ومن هؤلاء بعض فلاسفة الاسلام وعلى الاخص الفـ
فى نظريته فى فيض العقول ، وترتب الموجـودات عن الاول . ومع ا
بالفيض أو الصـدور تنتفى فكرة الخلق من العـدم (ation ex nihilo
وكذلك تصور بعض غلاة الشيعة كالاسماعيلية العالم على انه سلسلة
الفيوضـات عن المبـدأ الاول على نحو خاص يتفق مع نظريتهم فى الاما
وكذلك ذهب متفلسفة الصوفية من اصحاب وحـدة الوجود (ntheism
كابن عربى الى القول بأن العالم موجود بواسطة الحقيقـة المحمدية
هى أول تعين فاضت عنه ســائر التعينـات الاخرى مادية كانت أو رو
«انظر كتابنا ، علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٣»

وجميع القائلين بالصـدور من مفـكرى الاســلام يعمدون الى تأ
نصوص القرآن تأويلات فلسفية خاصة لتبدو متفقة مع ما يذهبون اليـ
من مذاهب ، والحديث عن هــذه التأويلات يخرجنا عن موضـــوع هـ
البحث .

أما المتكلمون من المسلمين فقـد عبروا عن الثنائية بين الله والعـ
قائلين : «ليس فى الوجود الا الخالق وخلقه» «الفصل لابن حزم ، جـ ،
ص ٩٩» ، وكل ما فى الكون دون الله جواهر وأعراض «النفس المرجـ
جـ ٣ ، ص ٩٠ــ٩١ ، ص ٩٤ ، جـ ٥ ص ٤٩» وقد أوجده الله على سبيلـ

يشير القرآن الى ان هناك عوالم ومخلوقات اخرى لا نعلم نحن منها شيئا ، فيقول تعالى : «ويخلق مالا تعلمون» (سورة النحل — آية ٨) .

وكيف يمكن أن نحيط بالفضاء الخارجي والعوالم التي من فوقنا لا حصر لها والمسافات التي بينها لا يتصورها عقل انسان ؟ اننا ننتمي الى كرة الارض ، وهي تنتمي الى مجموعتنا الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية تقع في مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشبيهة بها ، وفي الكون ملايين المجرات ! والمسافات بينا وبين النجوم تقاس احيانا بآلاف السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ٣٠٠ر٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة !

ان الانسان اذا تأمل هذا الكون لا يمكن له الا أن يسلم بأن نسبته ، بكرته الارضية كلها ، الى العوالم الاخرى التي خلقها الله نسبة توجب تلاشية !

هذا اذا نظرنا الى العالم الاكبر (macrocosme) ، اما اذا نظرنا الى الانسان نفسه فسنجده عالما قائما بذاته ، وهو لا يزال مجهولا من نفسه الى الآن ، ولم يدرك بعد أسرار كثير من وظائف جسمه وعقله ، ولا يعرف ما هو مصيره بعد الموت بامكانياته المادية التي يغتر بها .

اما اذا نظرنا الى عالم الاشياء المتناهية في الصغر (microcosme) فسنجد الذرة من حيث تكوينها شبيهة بالمجموعة الشمسية ، وسنجد كائنات

= الاختراع والابداع واحداث الشيء من لاشيء بمعنى اخراجه من العدم الى الوجود «نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٦٤» .

واما المعتدلون من صوفية الاسلام من اهل السنة ، فيقولون ان الثنائية بين الله والعالم قائمة ، ولكن الصوفي في حال الفناء عن ذاته يشهد الوحدة في الوجود كله شهودا ذوقيا بمعنى تلاشي الموجودات بالقياس الى الله كما يتلاشى ضوء الشمعة في ضوء الشمس . وهذه الوحدة الشهودية قائمة على اساس الذوق والعيان لا الاستدلال والبرهان. قارن كتابنا ، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

ذات خلية واحدة لها جميع وظائف الحياة ، يقول سيسل هامان : «عندما تذهب الى المعمل ونفحص قطره من ماء مستنقع تحت المجهر لكى نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الاميبا تتحرك فى بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها فاذا به فى داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الاميبا قبل ان نرفع اعيننا عن المجهر . فاذا لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فاننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا ، تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى فى أدائها الى آلاف الخلايا أو ملايينها . لا شك فى ان صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى أكثر من مصادفة»(٤م) .

الحقيقة أن النظر فى الكون أو الآفاق البعيدة بعدا شاسعا ، والنظر فى الانسان والكائنات الدقيقة جدا ، يدلنا على آيات الخالق التى لا حصر لها ، والتى ستتجلى للانسان دائما وابدا ، وصدق الله تعالى اذ يقول «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكفه بربك انه على كل شىء شهيد» «سورة فصلت ، آية ٥٣» .

واذا كنا لم نحط بعد علما بالكون المحسوس ولا بأنفسنا ، فكيف نزعم ادراك كنه الخالق وما أعمق المعنى فى قوله تعالى ، «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» «سورة الانعام ، آية ١٠٣» .

واذا تبين هذا كله نقول : اننا لا نستطيع بحسب القرآن ولا بحسب ما توصل اليه العلم الحديث أن نجزم بأن الكون يتناهى أو لا يتناهى ، وكل ما نعلم عنه هو انه غير محصور فى مداركنا .

واذا كان الكون بحسب ما ورد فى القرآن حادثا ، وله محدث هو الله ، فمن الطبيعى أن القول بأن الكون قد نشأ اتفاقا أو عن طريق المصادفة

(٤م) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٢ .

يكون متعارضا مع القرآن ، ومع ما جاء به من عقائد . بل انه يتعارض مع العلم ذاته ، يقول جون أدولف بوهلر : «عنـدما يطبق الانسـان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حـدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة ، مثل تكون جزىء واحد من جزيئات البروتين من العنـاصر التى تدخل فى تركيبه ، فاننا نجد عمر الارض ، الذى يقـدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو اكثر لا يعتبر زمنا كافيا لحـدوث هـذه الظاهرة وتكوين هـذا الجزىء عن طريق المصـادفة . ان ذلك لا يمكن أن يحـدث الا اذا كانت هنالك قوة موجهة تهـدف الى غاية محـدودة ، وتعيننا على ادراك كيف يخرج النظام من الفوضى»(٥م) .

ومما يظهرنا القرآن الكريم بعد هذا عليه أن العوالم المتعـددة التى يشتمل عليها الكون لم نخلق فى وقت واحد ، فمنها ما هو سـابق ومنهـا ما هو لاحق .

يقول تعالى : «وهو الذى خلق السموات والارض فى سـتة أيام(٦م) وكان عرشـه على الماء» «سورة هود ، آية ٧» .

وقد تساءل بعض المسلمين فى عصر النبى «ص» عن بداية العالم ، فذكر البخارى وغيره قال ، أهل اليمن لرسول الله «ص» جئناك لنتفقه فى الدين ، ونسـألك عن أول هذا الامر ، فقال : «كان الله ولم يكن شىء قبله أو معه أو غيره وكان عرشـه على الماء» .

(٥م) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٦م) ليس المقصود هنا باليوم اليوم المعروف لنا ، فهناك نسبية فى حساب أيام الله أشار اليها القرآن نفسه ، فمرة يذكر على انه ألف سنة «سـورة الحج ، آية ٤٧» ، ومرة اخرى يذكر على انه خمسون ألف سنة مما تعرف «سـورة المعـارج ، آية ٤» ، وقد يكون أكثر من ذلك حسـب ما يقـدر الله له .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية موضحا المقصود من هذا الحديث :
«ان قول اهل اليمن ، جئنا نسالك عن أول هـذا الامر ، وهو اشـارة الى حاضر موجود مشهود «اى الكون المرئى» . والامر هنـا بمعنى المأمور ، اى الذى كونه الله بأمره» .

«وقد اجابهم النبى «ص» عن بدء هـذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات «التى منها ما يتعلق بعالمنا ومنها ما لا يتعلق به» لانهم لم يسألوه عن ذلك» .

«وقد اخبرهم عن خلق السماوات والارض .. ، فظهر أن مقصوده اخباره اياهم ببدء السماوات والارض وما بينهمـا ، وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة ايام : لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك» .

«ولا يظن أن معناه «اى معنى الحديث» الاخبار بتعطيل الرب تعالى دائما عن الفعل حتى خلق السماوات والارض» .

«وايضا فقوله : «كان الله ولم يكن شيء قبله أو معـه أو غيره وكان عرشه على الماء» لا يصح أن يكون المعنى انه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلا ، لان قوله : «وكان عرشـه على المـاء» يرد ذلك ، فان هـذه الجملة ، وهى «كان عرشه على المـاء» فان حالية أو معطوفة ، وعلى كلا التقـديرين فهو ، «أى العرش» ، مخلوق موجود فى ذلك الوقت . فعلم أن المراد من قـول الرسـول «ص» ، ولم يـكن شيء من العـالم المشهود»(٢٧) .

لقد اثبتنا هذا الكلام لشارح العقيدة الطحاوية بنصه لانه على جانب كبير من الاهمية ، فهو يوضح لنا أن فى القرآن والسنة ما يفيد ان ثمـة خلقا آخر كان موجودا قبل خلق هذا الكون الذى نراه ، ومنه تشكل هذا

---

(٢٧) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

الاخير بما فيه . وهذا يعنى بعبارات أخرى أن هذا الـكون لم يكن على ما هو عليه ، ولم يتم خلقه بصورة مكتملة دفعة واحدة ، بل كان هنـاك ترتب زمانى فى خلق الكائنات ، بل وتطور فى عملية الخلق ذاتها . وهذا متفق تماما مع ما يذهب اليه العلم الحـديث الذى يحدد لاجرام المجموعة الشمسية وللارض اعمارا بواسطة حساب الإشعاع ، ويعين ازمانها التى نشأت فيها على سبيل التدريج(٢٨) .

---

(٢٨) فى بحث طريف لزميلنا الدكتور زغلول النجار الاستاذ المساعد بقسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت ، عنوانه «محاولات الانسان لتقدير عمر الارض» معلومات وافية عن طريقة الاشعاع فى حساب عمر الارض واجرام المجموعة الشمسية ، نقتطف منه هذه النتائج التى توصل اليها العلماء فى هذا الصدد . يقول سيادته : ان اقصى حد لتكوين العناصر فى مجرتنا هو ٧٠٠٠ مليون سنة ، ومن ذلك استنتج العلماء ما يلى :

اولا : ان العنـاصر فى مجرتنـا قد تكونت فى الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة .

ثانيا : ان الشمس قد تكثفت على هيئتها الحاليـة منذ ٦٠٠٠ مليون سـنة .

ثالثا : ان الكواكب الابتدائيـة قد تحولت الى كواكب عادية منـذ حوالى ٥٠٠٠ مليون سنة .

رابعا : ان الفصل الكيميائى فى أجسـام الـكواكب قديم منذ ٤٥٠٠ مليون سنة .

خامسا : ان القشرة الخارجية للارض قد تكونت بصورة دائمة منـذ ٤٠٠٠ مليون سنة .

سادسا : ان اقدم اثر للحيـاة ظهر على الارض منـذ ٣٠٠٠ مليون سـنة .

سابعا : ان الحياة ظهرت بصورة مزدهرة منذ ٦٠٠ مليون سـنة ، «بينما ظهر الإنسان على سطح الارض منذ مليون سـنة» ويقول الدكتور زغلول : «وبذلك استطاع الانسان الاجابة على ذلك السؤال المحير : منذ متى كانت الارض ، اجابة مدعمـة بالاسـتنتاجات المنطقيـة المجردة عن

ومما يدلنا ايضا على ان الكون قد خلق بما فيه من عوالم متعددة بالتدريج وليس دفعة واحدة قوله تعالى : «الحمد لله رب العالمين» «سورة الفاتحة ، آية ٢» .

ويبين لنا شارح العقيدة الطحاوية أن من بين المعانى التى تتضمنها كلمة «رب» «التربية ، وهى تبليغ الشىء كماله بالتدريج»(٢٩) .

وهذا هو عين ما يفهم من التطور Evolution فى الخلق ، اى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة ، وانما على مراحل ، من الادنى الى الاعلى ، أو من الاقل كمالا الى الاكثر كمالا . ولعل هذا المعنى يفهم ايضا من قوله تعالى : «يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير» «سورة فاطر ، آية ١» .

ففكرة التطور ذاتها ليست مخالفة للقرآن وانما الذى يخالفه هو القول بأن هذا التطور المشاهد فى الكائنات علويها وسفليها يتم عن طريق المصادفة وليس عن صانع مدبر حكيم .

والظاهر من القرآن الكريم بعد ذلك أن الكون كان وحدة متصلة تكثرت بعد ذلك الموجودات عنها . ولعل هذا المعنى يستفاد من قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

أما المادة التى تشكلت منها الاجرام السماوية فتوصف فى القرآن بأنها «دخان» . يقول تعالى : «ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

الخرافات والحدس والتخمين ، فكانت الارقام السابقة ، والعلم لا يدعى أن هذه الارقام لا تقبل التغيير ، فقد تؤكدها الدراسات المستقبلة أو تحورها ولكن الحقيقة الثابتة هى أن الارض ليست ازلية بل مستحدثة» محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الكويت ، ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، المطبعة العصرية بالكويت ، ص ٥٠٣ .

(٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٨ .

وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»(٢٠) .

وأما مادة الكائنات الحية التي منها نشأت وتطورت فهي «الماء» لقوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

ومما يستوقف الذهن البشرى حقيقة اشـارة القرآن الى أن أصـل الكائنات جميعا واحد ، وهى تتكون من زوجين اثنين ، يقول تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» «سورة الذاريات ، آية ٤٩» ، ويقول تعـالى : «سبحان الذى خلق الازواج كلها ممـا تنبت الارض ومن انفسهم وممـا لا يعلمون» «سورة يس ، آية ٣٦» .

وقد يطمئن عقل الانسان الى معانى مثل هذه الآيات بعد أن اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذرى للـكائنات على اختلافها ، وأن الذرة الواحدة تتكون من الكترون وبروتون .

وقد صور لنا الفيلسوف المعاصر برتراندرسل العالم الطبيعى بعـد اكتشاف اينشتين لنظريته فى النسبية(٢١) قائلا : «درسنا العالم الطبيعى فوجدنا أن المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها اذ حللها

---

(٢٠) سورة فصلت ، آية ١١ ، ومن الافتراضات العلمية الآن انه فى أول تاريخ مجرتنا كانت هنـاك سـحابة من غبار ذى تركيب كونى يشبه السديم ، واخذت واحدة من سحابات عـديدة تتكثف على هيئة نجوم تشبه الشمس بينما دار حولها قرص من غبار وغاز سرعان ما تكسر الى دوامات ذوات حجوم وترتيب مختلف فى داخل اى منطقة نصف قطرية يزداد حجمها كلما بعدت عن الشمس وبالتحام هـذه الدوامات عند التقائهـا اصبحت كتلا منفصلة من الغاز على أبعاد نصف قطرية من الشمس . وقد اطلق العلماء على هذه الكتل المنفصلة اسم الكواكب الابتدائية .

«انظر الدكتور زغلول ، محاولات الانسـان لتقـدير عمر الأرض ، محاضرات الموسم الثقـافى ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، لجامعـة الـكويت ، ص ٥٠٢» .

(٢١) موجز الفلسفة ، ترجمة الاسـتاذ الدكتور زكى نجيب محمود « بعنـوان «الفلسـفة بنظرة علميـة» مـكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ » ص ٢٥٨ .

العلماء الى مجموعات ذرية ، كل مجموعة منها تنحل الى ذرات ، وكل ذر
تعود بدورها فتنحل الى كهارب موجبة وكهارب سالبة» .

ولعل من الآيات القرآنية التى اتضح معناها على ضوء ما وصل
اليه الفيزياء المعاصرة من هذه النتائج ، قول الله تعالى : «وترى الجب
تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء» (سو
النمل ، آية ٨٨» .

فالجبال وما اليها من الاجسام المادية مدركة لنا على انها ثابتة صلبة
وليس الامر كذلك ، فهى عبارة عن عدد هائل من الذرات المنطوية ع
كهارب موجبة واخرى سالبة ، مردها الى اشعاعات فهى لذلك اشبه شو
بالسحاب من حيث انه عارض ومتخلخل . يقول برتراند رسل «ثم مض
العلماء فى التحليل فحللوا هذه الكهارب نفسها «التى تتكون منها الذر
الى اشعاعات ..» وللفيزياء النظرية جانب آخر هو نظرية النسبية
وهى نظرية ذات نتائج فلسفية هامة ، منها تحويل العالم الطبيعى ا
متصل من الحوادث ذى اربعة ابعاد بعد أن كان سلسلة من حالات ذو ا
ثلاثة ابعاد لعالم مؤلف من قطع من المادة لها صلابة وثبات» ، ثم هو يق
بعد ذلك : «وليس فى علم الفيزياء ما يبرهن على أن الخصائص الذاتيـ
للعالم الطبيعى تختلف عن خصائص العالم العقلى !»(٣) .

ويبين عالم الطبيعة ادوين فاست كيف ان النظر فى المادة التى م
نشأ الكون نظرة علمية تحليلية يؤدى بنا فى النهاية الى الايمان بوج
الله قائلا :

«وعندما تحاول العلوم أن تفسر لنا منشأ الكون تجدها تبين لنا
ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النووية كيف تتفاعل الجزيئـ
الاساسية لكى تكون لنا جميع العناصر المعروفة فجميع العناصر ا

---

(٣) انظر موجز الفلسفة ص ٢٥٨ ، ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها تنضم بعضها الى بعض» .

«اما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها ، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات ، فان ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحا أو بيانا» .

«ومهما بالغنا فى تحليل الاشياء وردها الى أصولها الاولى فلابد أن نصل فى نهاية المطاف الى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك فى ذاته دليـلا على وجود اله قادر مدبر هو الذى قدر لكل ظاهرةمن ظواهر هذا الكون أن تسير فى طريقها المرسوم(٣٣) . وقد خلق الله الالكترونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة ، فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها»(٣٤) .

الكون اذن لا حقيقة له الا من حيث ما اثبت الله له من الوجود بتجميع عناصره على النحو الذى وضحه لنا العلم الحديث ، وهى عناصر تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها ينضم بعضها الى البعض الاخر . ومهما بدت موجودات هـذا الكون ثابته صلبة فى ادراكنا نحن ، فانها فى حقيقتها ليست سوى ذرات تعـود بدورها فتنحل الى اشعاعات فليس ثمة حقيقة الا موجد الكون وما عـداه من الكائنـات هو أشبه شيء بوهم عارض كما يقول بعض صوفية الاسلام .

والله اذن هو العلة الممسكة بالعالم ، والحافظة عليه وجوده ولو لم يكن ذلك لتلاشى ، وهذا هو معنى قوله تعالى : «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (سورة فاطر ، آية ٥١) .

وقد اشار بعض مفكرى الاسلام الى معنى كون الله حافظا للعالم ، أو خالقا له باستمرار ، فى شيء من التفصيل :

---

(٣٣) هذا هو ما تشير اليه الآية الكريمة : «وخلق كل شيء فقـدره تقديرا» «سورة الفرقان ، آية ٢» .

(٣٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٩٦ .

يقول ابن حزم الاندلسى ما نصه : «والله تعالى خالق لكل مخلوق فى كل وقت .. قال عز وجل : «ثم انشأناه خلقا آخر» (سورة المؤمنون آية ١٤) ؛ وقال تعالى «خلقا من بعد خلق» (سورة الزمر ، آية ٦) ، فصح ان فى كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته ، فهو خلق جديد ، والله تعالى يخلق فى كل حين جميع العالم خلقا مستأنفا دون أن يفنيه» (٣٥) .

ويقول الكندى ان «الله هو المبدع الممسك كل ما أبدع ، فلا يخلو شىء من امساكه وقوته الا باد واندثر» (٣٦) .

وكذلك يذهب ابن عطاء الله السكندرى الى القول بأن الله هو العلة التى تمد الموجودات بعد وجودها بالوجود ، وهذا هو ما يسميه بالامداد على نحو ما يتبين من قوله فى «الحكم» : «نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الايجاد ونعمة الامداد» (٣٧)

وهو يقول ايضا : «أمد (الله) كل موجود بوجود عطائه ، وحفظ وجوده (أى وجود الله) وجود العالم بامداد بقائه» (٣٨) .

وجدير بالذكر أن ما يذهب اليه مفكرو الاسلام الذين ذكرنا فى هذا الصدد متفق مع ما يذهب اليه بعض الفلاسفة المحدثين فى أوروبا ، من القول بالخلق المستمر (Création Continuée) مثل ديكارت

---

(٣٥) الفصل ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٣٦) رسائل الكندى ، تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٦٢ .

(٣٧) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٩١ .

(٣٨) التنوير فى أسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٢ .

(39) Descartes : Discours de la methode. œuvres de Descartes, ed, Libraire Joseph Gibert P. 46 Les Principes de la Philosophie pp. 192—193.

«٣٩» ومالبرانشن «٤٠» .

ونعود مرة اخرى الى خلق الله للاشياء فنقول:

ان الله خلق كل شيء في هذا الكون بقدر ، اي بتقدير كمي وزماني وفق ماهية سابقة . وان شئت قلت : حدده واعطاه اوصافه وجعل له رتبة وجودية معينة ، يقول ابن حزم : «ومعنى القدر في اللغة العربية الترتيب والحد الذي ينتهي اليه الشيء ، تقول : قدرت البنـاء تقديرا اذا رتبتـه وحـــددته» .

«قال تعالى : «وقدر فيها اقواتها (سورة فصلت ، آية ١٠) ، بمعنى رتب اقواتها وحددها . وقال تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر» (سـورة القمر ، آية ٤٩) يريد تعالى ، برتبة وحد . فمعنى قضى وقدر : حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقـدر : حكم الله تعالى في شيء بحمـده وذمه ، وبكونه وترتيبه على صفة كذا ، والى وقت كذا» «٤١» .

والآيات التي تشير الى تقدير المخلوقات تقديرا كميا خاضعا للقيـاس او الحساب كثيرة في القرآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى بعضها : «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» ، (سورة الفرقان ، آية ٢) .

«والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» (٤٢) .

«فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» (سورة الانعام ، آية ٩٦) .

---

(40) Malbranche : Entretiens Métaphysiques, VII, 7ed. Fontana 1, 150.

(٤١) الفصل ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٤٢) سورة يس ، آية ٣٨ ــ ٣٩ . والمقصود بالعرجون القديم فرع النخل اليابس ، اي ان التمر لا حياة فيه ، وهذا هو ما تأكد بعد الهبوط عليـه .

«الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرناه فنعم القادرون» (سورة المرسلات ، آية ٢٠ — ٢٣) .

«سبح اسم ربك الاعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى» (سورة الاعلى ، آية ١ — ٣)

«والسماء وضعها ورفع الميزان» (سورة الرحمن ، آية ٧)

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» (سورة الحجر ، آية ١٩) .

ومن الآيات التى تشير أيضا الى تقدير المخلوقات تقديرا زمنيا قوله تعالى :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر (سورة يونس ، آية ٣) .

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» (سورة يونس ، آية ٥) .

«وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» (سورة الحج ، آية ٤٧) .

«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون» (سورة السجدة ، آية ٥) .

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة» (سورة المعارج ، آية ٤) .

وثمة ملاحظة هامة هنا ، وهى ان اختلاف التقدير فى الايام على النحو الذى تشير اليه بعض آيات القرآن . يفهم اذا علمنا أن الزمان هو أمر نسبى ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الافلاك فى مجموعتنا الشمسية ، اما خارج نطاق هذه المجموعة فليس ثمة زمان بالمعنى الذى نفهمه نحن على هذه الارض .

هذا عن خلق الله للموجودات بمقدار ، اى تحديدها من ناحية الكم وفى الزمان .

اما عن ماهية كل موجود او طبيعته الخاصة به ، فقد اشار القرآن اليها فى قوله تعالى :

«قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى» (سورة طه ، آية ٥٠) وفى قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) .

ويتحدث ابن حزم عن ان الله قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلا : «وكل هذه الطبائع (التى للموجودات) والعادات مخلوقة . خلقها الله عز وجل . فرتب الطبيعة على انها لا تستحيل ابدا ولا يمكن تبدلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الانسان بأن يكون ممكنا له التصرف فى العلوم والصناعات ان لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر «أى القمح» ان لا ينبت شعيرا ولا جوزا ، وهكذا كل ما فى العالم» (٤٣) .

وهكذا يمكن القول بحسب الاسلام ان الله قد خلق كل مخلوق وفق ماهية سابقة له . وهذا مخالف لما يذهب اليه اصحاب الفلسفة الوجودية فى العصر الحاضر من القول بأن الوجود سابق على الماهية .

وينبه القرآن الكريم بعد هذا كله الى ان الكون كله يسوده نظام محكم لا تفاوت فيه ولا نقص . يقول تعالى : «الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير» (٤٤) .

والحكمة تقتضى ان الموجودات فى الكون انما توجد وفق قوانين او على حد تعبير القرآن لسنن لا تتبدل .

وليس ادل على انتظام امر الكون من انه خاضع لقوانين ثابتة ، يقول تعالى : «افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

---

(٤٣) الفصل ، جـ ٥ ، ص ١٦ .

(٤٤) سورة الملك ، آية ٣ — ٤ . والفطور هى الشقوق ، والمقصود انك لا ترى اختلالا .

من فروج» (٤٥) .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه النقطة لنفصل الكلام فيها ، ليتبين القارىء أن القرآن حين يوجه العقول الى اكتشاف سنن الكائنات انما يدعو دعوة صريحة الى العلم بالمعنى الذى يفهم منه فى عصرنا .

فالقرآن يذكر فى آيات كثيرة ان الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعنى انها لم تخلق باطلا أو عبثا أو على أى نحو اتفق يقول تعالى :

«اولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى» (سورة الروم ، آية ٨) .

«وما خلقنا السماوات الأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون» (سورة الدخان ، آية ٣٨ — ٣٩) .

«خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير» (سورة التغابن ، آية ٣) .

ومعنى كلمة «الحق» الواردة فى مثل هذه الآيات ، ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الأصفهانى فى «مفردات غريب القرآن» (٤٦) ولذلك توصف أفعال الله كلها بأنها حق ، أى أنها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته .

معينة (٤٧) ، والا لم تكن حكمية ، وهذه القوانين ليست شيئا أكثر من ربط الاسباب بمسبباتها ، والى هذا يشير ابن رشد ، في عبارات تدل على

---

(٤٥) سورة ق ، آية ٦ . والمقصود بقوله تعالى : «مالها من فروج» ليس فيها عيوب أو نقائص .

(٤٦) مفردات غريب القرآن ، مادة : «حق» .

(٤٧) يطلق على الموجودات فى القرآن احيانا وصف الكلمات ، وهى لا تتبدل من حيث قوانينها ، يقول ابن حزم : «لا مبدل لكلماته» ، فصح أنه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» ، الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ » وانظر سورة الانعام ، آية ١١٥ ، وسورة الكهف ، آية ٢٧ .

علمية تفكيره ، قائلا : «الحكمة ليست شيئا أكثر من معرفة اسباب الشيء ، واذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره ، كما انه لو لم تكن هنا أسباب ضرورية في وجود الامور المصنوعة لم تكن هنالك صناعة أصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع .

«واى حكمة كانت تكون فى الانسان لو كانت جميع أفعاله واعماله يمكن أن تأتى بأى عضو اتفق ، أو بغير عضو ، حتى يكون الابصار مثلا يتأتى بالاذن كمايتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالانف» .

«وهذا كله ابطال للحكمة ، وابطال للمعنى الذى سمى به (الله) نفسه حكيما . تعالى وتقدست اسماؤه عن ذلك» (٤٨) .

وعلى ذلك فان «بناء المسبباب على الاسباب هو الذى يدل على انها (اى الموجودات) صدرت عن علم وحكمه» (٤٩) .

وبشيء يسير من التأمل يدرك الانسان انه لابد ان تكون هناك قوانين معينة للظواهر الكونية ، هى مظهر حكمة الخالق تعالى .

فالذى ينظر الى السماء يرى النجوم والكواكب معلقة فى الفضاء دون أن تستند الى شيء ، يقول تعالى ، «الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها» (سورة الرعد ، آية ٢) ، ومثل هذا التنبيه القرآنى من شأنه أن يدفع الانسان الى التساؤل عن علة وجود الاجرام فى السماء على هذا النحو ، ثم اذا بالانسان يهتدى الى قوانين الجاذبية والحركة والنسبية وما الى ذلك ، فيعرف الاسباب الحقيقية لتلك الظاهرة .

وكذلك المتأمل فى ظاهرة تعاقب الليل والنهار يتساءل عن السر فى

---

(٤٨) الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤١ .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

تعاقبهما ، فيجيبه القرآن بما يفيد كروية الارض ودورانها المستمر ، فيقول تعالى : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» (سورة الزمر ، آيــة ٥) .

وليس هذا فهما معاصرا لهذه الآية ، وانما هو فهم قـديم توصل اليه علماء المسلمين قديما بفضل القرآن ، وفى ذلك يقول ابن حزم : «ان احـدا من ائمة المسلمين المستحقين لاسم الامامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الارض ، ولا يحفظ لاحد منهم فى دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها . قال الله عز وجل : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» . وهذا أوضح بيان فى تكوير بعضها على بعض ، مأخوذ من كور العمامة وهو ادارتها» (٥٠) .

ومن الظواهر الطبيعية التى يجمل القرآن الكريم الاشـــــارة الى أسبابها بما لا يختلف عما هو معروف من العلم الحديث ، السحاب والمطر والبرق يقول تعالى :

«الله الذى يرسل الرياح فتثير سـحابا فيبسطه فى السـماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عبادة اذا هم يستبشرون» (٥١) .

«الم تر أن الله يزجى سـحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتـرى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار» (سورة النور ، آيــة ٤٣) .

ان القرآن بمثل هاتين الآيتين يدفعنا الى علمية التفكير المتمثلة فى ربط الظواهر الطبيعية بعللها الحقيقية لا الوهمية ، فالسحاب والمطـــر والبرق ترتبط فى حدوثها بعوامل معينة كحرارة الشمس ومياه البحر وبخار الماء المتصاعد بفعل الحرارة والرياح واحتكاك السحب حين تتجمع .

---

(٥٠) الفصل ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٥١) سورة الروم ، آية ٤٨ والودق هو المطر .

هذه أمثلة قليلة مما يزخر به القرآن من آيات تحث عقل المفكر على اكتشاف قوانين الطبيعة التى هى مظهر نظام الكون ، كما أنها فى نفس الوقت دلالات على أن هذا الكون لم يخلق باطلا أو عبثا ، وأن له غاية .

وصدق الله تعالى اذ يقول : «وما خلقنا السماوات والارض باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص ، آية ٢٧) .

وانظر الى العلم بالكون وقوانينه حينما ينتهى الى الايمان بالله فى صورة رائعة يقدمها لنا سيسل هامان اذ يقول :

«فاذا رفعنا أعيننا نحو السماء فلابد أن يستولى علينا العجب أكثر ، من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ، والتى تتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد انملة ، مهما مرت بها الليالى ، وتعاقبت عليها الفصول والاعوام والقرون . انها تدور فى افلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة .

«فهلا يظن احد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء» واذا لم يكن لها نظام ثابت ، ولم تكن تتبع قوانين معينة ، فهل كان من الممكن أن يثق الانسان بها ، ويهتدى بهديها فى خضم البحار السبعة ، وفى الطرق الجوية التى تتبعها الطائرات (م٥) .

«الحق انه من قطرة الماء التى رأيناها تحت المجهر الى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الانسان الا أن يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه .

«ولولا ثقة الانسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما

(م٥) هذا هو معنى قوله تعالى : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» ، سورة النحل ، آية ١٦ .

أضاع الناس أعمارهم بحثا عنها فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة فى نظام الكون يصير البحث عبثا ليس وراءه طائل .

«ولو انه كلما اجريت تجربة اعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة فأى تقدم كان من الممكن أن يحققه الانسان؟ ».

«لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى . فليس مما يقبله العقل أن يكون هناك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع .

«وكلما وصل الانسان الى قانون جديد فان هذا القانون ينادى قائلا : ان الله هو خالقى وليس الانسان الا مكتشفا!» (٥٣) .

خلاصة القول فيما سبق ان معالم صورة الكون فى الاسلام تتحدد على النحو التالى : —

الكون كله حادث مخلوق ، وكلّ ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية والله تعالى هو الذى خلقه بما فيه من عوالم متعددة ومخلوقات نعلم بعضها ولا نعلم عن البعض الآخر شيئا ، وان الكون لعظم اتساعه غير محصور فى مداركنا ، ولذلك لا يمكن القطع بأنه يتناهى أو لا يتناهى . وكذلك فان الله لم يخلق عوالم الكون دفعة واحدة وانما خلقها على سبيل التدريج أو التطور ، وان الموجودات جميعا فى الكون من أصل واحد . والله هو الممسك للكون أو الحافظ عليه وجوده ، ولولا ذلك لتلاشى ، وأن خلقه للموجودات مستمر . وحين خلق الله مخلوقاته فانه خلقها بقدر ، أى بتقدير كمى وزمانى وفق ماهيات سابقة . والكون كله يسوده نظام دقيق محكم اذ ان جميع الموجودات فيه خاضعة لقوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ، وهذا هو معنى ايجادها بالحق ، أى بمقتضى حكمه معينة .

---

(٥٣) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٤ .

علاقة الإنسان بالكون

واذ قد تبينت صورة الكون على هـذا النحـو ننتقل الى البحث عن الانسان من حيث علاقته بالكون : كيف وجد فيه ، وما هى طبيعتـه المميزة له ، وما هى رسالته فى هذه الحياة التى يحياهـا على الارض ، وما معنى تسخير الكون له ، أو ملاءمته لوجوده ، وهل لحياته غاية ابعـد من تلك التى تتحقق على الارض؟ كل أولئك تسـاؤلات نحـاول أن نجيب عليها فيما يلى :

الانسان بحسب ما ورد فى القرآن الكريم هو محور هذا الكون ، وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الالهية فيه ، خلقه الله فى احسن تقويم وجعله فى أكمل صورة . يقول تعالى : «لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) ، ويقول تعالى : «وصـــوركم فأحسن صوركم» (سورة غافر ، آية ٦٤) .

اما كيف تم خلق الانســــان ، فهذا مما لا نستطيع الوقوف على حقيقته ، صحيح ان فى القرآن الكريم ما يشير الى قصة خلق آدم ، وكيف علمه الله الاسماء كلها ، وامر الملائكة بالسجود له فجسدوا الا ابليس ، وكيف اخطأ هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط الى الارض ، (سورة البقرة ، آية ٣٠) وما بعدها ، ولكن هذه كلها اشارات الى أمور غيبية لا نعرف كنهها وهى ايضا مما يحتمل تأويلات شتى .

وقد اصاب ابن حزم حيث يقول : «فلسنا نعلم ولا احد من الناس كيفية ذلك (اى بدء الخلق) ، وهـــذا نص قوله تعالى : «ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق انفسهم» (ســـورة الكهف ، آيــة ٥١) .. اما ما كان بعـد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات ، قال تعـالى : «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبـدل لكلماته» (ســورة الانعام ، آية ١١٥) ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» (٥٤) .

---

(٥٤) الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

ولا يعيب الانســـان المفكر أبدا أن يقر بعجـز عقله الآن عن ادراك حقيقة ما ، فما اكثر ما لا نعرفه بيقين ، وانما الذى يعيبه حقا هو ان يسارع فينكر ها لمجرد الانكار ، أو يخوض فيه الكلام عنها متأولا بما لا يعرق .

وإذا كان العلماء يحددون الآن بدء ظهور الانســـان على هذه الارض بما يقرب من مليون سنة ، استنادا الى اقدم الحفريات ، فهذا يدل على ان الإنسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات أدنى منه سبقته على هـذه الارض ، بل ان الانسان نفسه تطور على هذه الارض مارا بمراحل متتالية حتى الى ما بلغ اليه من كمال ، يقول تعالى :

«هل اتى على الإنسـان حين من الدهـر لم يـكن شيئا مذكورا» (سورة الإنسان ، آية ١) .

« ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» (سـورة نوح ، آية ١٢ ــ ١٨) .

ولكن التطور الذى تشير اليه مثل هذه الآيات فى القرآن اشـارات مجملة أنما يتعلق بالانسان من حيث هو كائن مادى ، لا من حيث هو كائن روحى ، فالانسان بالاعتبـار الاول نشـأ على هذه الارض وتطـور ، اما بالاعتبار الثانى فقد كان له وجود روحى سـابق فى عالم آخر ــ وهو ما تشير اليه قصة خلق آدم فى القرآن ــ وان كنا لا ندرى كيفيات هـذا الوجـــود .

يقول تعـالى : «ويسـألونك عن الروح قل الروح من أمـر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

اما القول بأن الانسان مادة فقط ، فهو قول ينقضه ما يعرفه الانسان بفطرته ، فهو كائن يعى ذاته ، والمادة لا تعى ذاتها .

واكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين سائر الكائنات الاخرى الحية القادرة على استخلاص اشد انواع المعرفة تجريدا بعمليات ذهنية فى غاية من التعقيد ، ولا حدود لانطلاقاته فى هذا السبيل .

والانسان حين يعمد الى تأمل ذاته ، أو ما يسميه علماء النفسى بالاستبطان (Introspection) لا يدرك مادة ، وانما يدرك فكرا .

وبتعبير اكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير ، هى ما يطلق على مجموعة الذات المفكرة ، أو بتعبير علماء النفس الانا (Ego) ، على اعتبار أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلا ان تصدر عنه .

ان استمرار حياة الانسان الوجدانية فى تيار واحد لا انقسام فيه ولا انفصام ، أو بعبارات اخرى شعوره من أول عمره الى آخره بحركة فكره المتصلة فى الزمان ، يثبت له أن ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما ، وان كانت هى علة تدبيره وحركته .

ولما كان الانسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة ، فانه غير محتاج فى اثبات صدقه الى دليل من خارج ، فالحدس دائما اقوى من البرهان .

والانسان يدرك من نفسه ايضا بطريق مباشر انه حين يسلك فانما يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا ، ولا نستطيع ان نصف كل هذه الدوافع بانها مادية . ولهذا فان مظاهر سلوك الانسان من أشد الامور تعقيدا اذ لا يمكن تفسيرها آليا . ولم ينجح علماء النفس بعد فى اخضاع جميع الظواهر النفسية فى الانسان الى القياس الكمى . وعلى سبيل المثال فان مجال العواطف الانسانية لا يزال الى الآن من أغمض المجالات فى علم النفس .

كل هذا يدلنا على الفارق بين الانسان وبين غيره من الكائنات الحية وغير الحية ، وهو الفارق الذى يكمن فى ان الانسان حين يصدر فى سلوكه فانما يصدر عن ارادة واعية وفكر استدلالى ، والفكر غير خاضع لقوانين المادة ، وهى لا تفسر لنا شيئا من تصوراته المجردة وعملياته المعقدة .

ونحن اذا قلنا ان الانسان كائن ذو طبيعتين ، احداهما تتعلق بعـالم المكان والزمان ، والاخرى تتعلق بعالم آخر غير مادى ، فان قولنا هـذا ليس يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الانسـان كما يحسـه هو نفسه مباشرة . فالانسان هو الكائن الوحيـد الذى ينزع بشعوره وبعقله نزوعا غريبا الى ما وراء المحسوس ، وهو نزوع يـكاد ان يكون فطريا فيه وملازما لطبيعته ، فكيف يمكن اغفال دلالات ذلك؟

ونعود الآن الى ما كنا بصدده ، فنقول ، ان الانسان نشأ وتطور على هذه الارض ، ولكن بعد وجود سباق لا ندرى كنهة فى عالم آخر غير هـذا العالم المحسوس .

ومن الآيات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى :
«واذ اخـذ ربك من بنى آدم من ظهـورهم ذريتهم واشـهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيـامة انا كنا عن هذا غافلين» (سورة الاعراف ، آية ١٧٢) .

ويذكر فخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية ان صوفية الاسلام يأخذون فى تفسيرها برأى مؤداه أن الارواح البشرية موجودة قبل الابدان ، وان الاقرار بوجود الاله من لوازم ذواتها وحقائقها (٥٥) .

والواقع أن صوفية الاسـلام لم يكونوا هم وحـدهم الذين فهموا تلك الآية الكريمة على هذا النحو ، ولكن يشاركهم فى هذا الفهم ابن حزم على الرغم من أنه من أئمة الظاهرية ، فهو يقول :

«ان الله تعالى قد نص كما ذكرنا أنه أخـذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ، وهذا نص جلى على أنه عز وجل خلق انفسنا كلها من عهد آدم عليه السلام ، لان الاجساد حينئذ بلا شك كانت ترابا وماء . وأيضـا فان

---

(٥٥) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القـاهرة ١٣٢٤ هـ ، ج ٥ ، ص ٣١٢ وما بعدها .

المخاطب انما هو النفس لا الجسد . فصح يقينا أن نفوس كل من يكون من بنى آدم الى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك . ولم يقل الله عز وجل انه افنانا بعد ذلك . ونص تعالى على أنه خلق الارض والماء حينئذ بقوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء آية ٣٠» ، وقوله تعالى : «خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على على العرش» «سورة الاعراف ، آية ٥٤» . واخبر عز وجل انه خلقنا من طين ، والطين هو التراب والماء ، وانما خلق تعالى من ثلاثة اجسامنا ، فصح أن عنصر اجسامنا مخلوق منذ أول خلقة تعالى السماوات ، وأن أرواحنا ، وهي انفسنا ، مخلوقة منذ أخذ الله تعالى عليها العهد»(٥٦) .

وفي رأينا أنه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم

كما أن علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الآن ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادي أكثر مما استطاع أن يعرفه عن أسرار نفسه .

مهما يكن من شيء ، فان الله تعالى خلق الانسان ، وشاء أن تكون هذه الارض مستقرا له الى وقت معلوم ، وفي ذلك يقول تعالى : «ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين» «سورة البقرة ، آية ٣٦» .

والانسان في هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الارض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها ، وهذا هو معنى الاستخلاف في قوله تعالى : «اني جاعل في الارض خليفة» «سورة الانعام ، آية ١٦٥» .

---

(٥٦) الفصل ، جـ ٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

على ان هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان ، فقد أراد الله لهذا الانسان ان تعاني نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيما هو مستخلف فيه ، وهو صراع تكتمل من خلاله شخصيته ، وترتقي من الناحيتين الروحية والمادية ، فيتهيأ بهذا لحياة أخرى غير هذه الحياة ، والقانون الذى يحكم هذا كله هو : الجزاء على قدر العمل ، يقول تعالى :

«وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» «سورة الأنعام ، آية ١٦٥» .

«هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا» «سورة فاطر ، آية ٣٩» .

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» «سورة الكهف ، آية ٧» .

«ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» «سورة يس ، آية ٥٤» .

«يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا اعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «سورة الزلزلة ، آية ٦ — ٨» .

وكان من مظاهر رحمة الله أن جعل فى الانسان عقلا ليستطيع به ادراك أسرار الكون ومعرفة خالقه ، وترتيب أمور معاشه فى هذه الدنيا على أفضل وجه . وهذا العقل هو الامانة التى يذكر القرآن أن الانسان قد حملها «انظر : سورة الاحزاب ، آية ٧٢» . وبواسطة العقل أيضا يستطيع الانسان أن يميز بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، كما يفهم من قوله تعالى : «ونفس وما سواها .. فألهمها فجورها وتقواها» «سورة الشمس ، آية ٧ — ٨» .

ومن مظاهر رحمة الله بالانسان أيضا ارسال الرسل بالبينات ، لعلمه تعالى بأن شهوات الانسان وأهواءه قد تنحرف بعقله إلى مسالك الشر

وكان ان تتابعت الرسالات مسايرة المجتمعات الانسانية فى تطورها الصاعد آخذة بيد البشرية الى اسباب ارتقائها الروحى والمادى حتى كانت الرسالة المحمدية فختمت بها الرسالات ، وتحققت بها الرحمة كاملة ؛ يقول تعالى : «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين». «سورة الانبياء ، آية ١٠٧» .

جاء الاسلام لنوع الانسان بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة ؛ وتم بلاغ السماء للناس جميعا ، وتأكدت أهمية الانسان على هذه الارض وكرامته وعزته ، وتحددت صلته بربه ، وبأشباهه من الناس ، على أسس واضحة ، وتركت للناس مصالحهم المرسلة يعالجونها كلما جدت وقائع جديدة فى حياتهم وانتهت مرحلة الاعتماد على الخوارق فى اثبات الرسالات بوصول البشرية الى مرحلة الاعتماد على العقل فى معرفة الكون وخالقه .

لهذا كان العقل دعامة أساسية من دعامات الاسلام ، واستخدام العلم من اقوى الوسائل الى تحقيق رسالة الانسان على هذه الارض ، وهى ان يعمرها ويستغل خيراتها الى ابعد الحدود .

ونظرة الى تاريخ حضارة الانسان منذ وجد على هذه الارض الى الآن كفيلة ببيان الحكمة الالهية من وجود الانسان ، فالتطور الهائل فى امكانياته يدلنا على أن الله قد أوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجد فى مخلوق آخر ، ولا زال مستقبل الانسان يحمل من الامكانيات فى تسخير الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور ، ومن ذا الذى كان فيما مضى يتصور وصول الانسان الى القمر ؟!

ان الانسان فى الحقيقة هو قمة الموجودات فى هذا العالم ، وهو بمثابة مرآة يتجلى فيها الكون كله ، وهو الكائن الوحيد على هذه الارض القادر على تعقل ما حوله واعطائه معنى وهدفا ، وما أعمق المعنى فى قوله تعالى : «وفى انفسكم أفلا تبصرون» «سورة الذاريات ، آية ٢١» .

فليس غريبا أن يكرم الله الانسان لما فيه من هـــذه المعـــانى كلها ؛ وصدق الله اذ يقول : «ولقـــد كرمنـــا بنى آدم» «ســـورة الاسراء ، آية ٧٠» .

وليس غريبا كذلك أن يكون الانسان موضع العناية الالهية ليتمكن من استمرار الوجود على هذه الارض وليحقق رسالته .

والحقيقة أن من أقوى الدلائل على أن الانسان محور هذا الكون هو تلك الملاءمة التى يدركها بيسر تأمل بينه وبين العالم الذى يعيش فيه :

فالغـــلاف الجوى المحيط بالارض يحميها من الشهب والنيـــازك ، والهواء المحيط بالانسان ملائم لتنفسه ووظائف حياته ، ولا كذلك الطبقات العليا من الجو(٥٧) ، ووجود الجبال يحفظ توازن الارض ، وتعاقب الليل والنهار فيه ملاءمة لنوم الانســـان ويقظته ، ونزول المطر من السماء هو بمقـــدار ما ينبت به النبات وينتفع به الانسان والحيوان ، وعدم اختلاط مياه البحار بمياه الانهار العذبة هو من أجل بقاء النبات والحيوان والانسان ، ووجود الاشجار فيه من الفوائد للانسان ما لا يحصى ، وكذلك المعـــادن فى باطن الارض . وهكذا فان كل ما نشاهده من هذا العالم المرئى انما يوحى الينا بأنه لحياة ملائم الانسان من كل الوجوه ، يقول تعالى :

«أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضـــحاها . والأرض بعـــد ذلك دحاها . أخرج منهـــا ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم» «سورة النـــازعات ، آية ٢٧ — ٣٣» .

---

(٥٧) أشار القرآن الى عدم ملاءمة الطبقات العليا لتنفس الانســـان فى قوله تعالى :
«ومن يرد أن يضله يجعل صـــدره ضـــيقا حرجا كأنمـــا يصعد فى السماء» «ســـورة الانعـــام ، آية ١٢٥» ، وهو أمر لم يكتشفه العلم الا حديثـــا .

«افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد واحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج» «سورة ق ، آية ٦ — ١١» .

«الم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا . وجنات الفافا» «سورة النبأ ، آية ٧ — ١٦» .

«وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» «سورة الرعد ، آية ٣ — ٤» .

«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا» «سورة الفرقان ، آية ٥٣» .

«وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون» «سورة المؤمنون ، آية ١٨ — ١٩» .

«افرايتم الماء الذى تشربون . أانتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . ولو شاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون . افرايتم النار التى تورون . أانتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم» «سورة الواقعة ، آية ٦٨ — ٧٤» .

ان هذه الموافقة بين العالم والانسان ، والتى تشير اليها هذه الآيات القرآنية ، وكثير غيرها فى القرآن الكريم ، تظهرنا أيضا على أن العالم لم ينشأ اتفاقا كما يقول الماديون . وقد عبر ابن رشد عن هذا المعنى الاخير قائلا :

«كما أن الانسان اذا نظر الى شىء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس ، والغاية المطلوبة منه ، حتى يعترف انه لو وجد بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الامر فى العالم كله ، فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار ، وسبب الامطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الارض ، ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها ، وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وانه لو اختل شىء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا ، علم على القطع انه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع أجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك عن قاصد قصده ، ومريد أراده ، وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع»(٥٨)

ان نظرة ابن رشد الى ما فى الكون من نظام يدل على الغائية على هذا النحو يدلك على علمية تفكيره . ولو عاش ابن رشد فى عصرنا لعلم من أسرار الموجودات فى الكون ، ومن موافقتها لوجود الانسان ما لم يكن ليخطر له على بال ، ولتقوى دليله فى العناية باكثر مما هو عليه .

---

(٥٨) الكشف عن مناهج الادلة ، ص ٨١ — ٨٢ .

ومن الطريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين ، هو نيل سوارتزن دروير ، عن نفس دليل ابن رشد الذي مر بك ، ولكن بلغة عصرنا ، فيقول :

«كيف تفسر ذلك النظام والابداع الذي يسود هذا الكون ؟ هنالك حلان ، فاما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو ما لا يتفق مع المنطق أو الخبرة وما لا يتفق في نفس الوقت مع قوانين الديناميكا الحرارية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم

«واما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير ، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق

«وهكذا ترى العلاقة بين النبات والتربة تشير الى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره

«وانا واثق أن الاخذ بهذا الراي سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعة وقوانينها . ومعظم هؤلاء ممن ياخذون بالتفسيرات الميكانيكية ، ويظنون أن النظريات التي يصلون اليها في تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينهـا .

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا الى الاعتقاد أن ما وصلنا اليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس الا تفسيرات مؤقتة ، وليست لها صفة الاطلاق أو الثبات .

«فاذا سلمنا بهذا الرأي تضاءل خطر المعارض في غرضية الكون أو وجود غاية منه ، فمما لا شك فيه أن هنالك حكمة وتصميما وراء كل شيء ، سواء في السماء التي فوقنا أو الارض التي من تحتنا .

«ان انكار وجود المصمم والمبدع الاعظم يشبه في تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلا رائعا رائعا يموج بنباتات القمح

الصفراء الجميلة ، ثم ينكر فى نفس الوقت وجود الفلاح الذى زرعه والذى يسكن فى البيت الذى يقوم بجوار الحقل!!» (٥٩) .

وهكذا تبدو الغائية فى الكون وفى الانسان فى أجلى مظاهرها أمام العقل العلمى المنصف الذى عرف حدوده وتخلى عن غروره بامكانياته .

وما أجل عبارة أينشتين : «ان الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ، ولكنه غير مؤهل للحياة» (٦٠) .

واذا كانت حياة الانسان على الارض قصيرة للغاية الا أنها عظيمة الانجازات . فهل ينتهى كل هذا فجأة ويضيع كفاح الانسان كله على هذه الارض؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الانسانية وتعمير الارض مع من أفسد فيها؟ وهل يستوى العالم والجاهل والمحسن والمسىء؟

لو كان الامر كذلك ، اذن تكون حياة الانسان على الارض عبثا لا معنى له ، وضياعا لاحد له!

لقد علم الله حين خلق الانسان أنه قد يحتجب بشهواته وأهوائه من رؤية الحقيقة فيقع فى وهم كوهم الدهرية حين قالوا : «ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية ، آية ٢٤) .

ومن هنا بين الله تعالى للانسان أن ثمة وراء حياته هذه حياة أخرى سيحاسب فيها على أعماله ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، لا يستوى فيها العالم والجاهل ، ولا المؤمن والفاسق ، ولا الطيب والخبيث .

---

(٥٩) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .
(٦٠) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ، آيــة ٩) .

«أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (ســـورة السجدة ، آيـــة ١٨) .

«قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث» (ســورة المائدة ، آية ١٠٠) .

وهذا هو العدل الذى يطمئن اليه قلب الانسان ويجعل لحيـــاته معنى .

ان الايمان بحياة اخرى يدفع الانســـان ايضـــا الى العمل الصالح النافع لان هذا هو الطريق المؤكد الى السعادة .

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه (٦١) : «هل للحياة قيمة» قال فيه ان الحياة تستحق ان نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وأنه يوجد الى جوار عالمنا المحســـوس قوى روحية خالدة ، وتوجد هذه القوى فى عالم غير مرئى .

ان اعتقادنا فى هـــذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للانســـان . ومعنى الخيرية ملاءمة عالمنا لحيـــاة خلقية ودينية ناجحة . ان الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا مجالا جديدا وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصـــاب بالعجز واليأس . اننـــا حينئذ نشعر بالامل والسعادة حينما نرتمى فى أحضـــان ذلك العالم الفسيح .

لقد عبر وليم جيمس عن واقع الانسان حين جعل سعادته مرتبطـــة بايمانه بوجود عالم غيبى ، وهى سعادة لا يمكن أن يعرفهـــا حق المعرفة الا من عانى تجربة دينية حقيقية لا شكلية . ولا كذلك الانســـان الملحد

---

(٦١) محمود زيدان : وليم جيمس ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ١٥٦ .

فهو لا سبيل له الى تصور سعادة كهذه ، لانه اذا تفكر في مصيره يجد نفسه عاجزا بإزاء الموت الذى يضع نهاية اخيرة لوجوده ، والذى لا مفر له منه في نفس الوقت . وهذا يدفعه الى انواع من التحديات العنيفة التى يحاول أن يؤكد بها ذاته . ومن بين صور هذه التحديات السعى الى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم انسانية ، واقبال لا حد له على ملذات الحياة دون مبالاة بالغير ، وبطرق مشروعة وغير مشروعة . وهذا يفسر لنا لماذا يقترن الالحاد بالانانية المفرطة والحقد والحسد والضغينة وما الى ذلك من شرور اخلاقية . وهذا أمر طبيعى فما الذى يمكن ان يخشاه الملحد اذا كان يعتقد انه لا قيم تلزمه ، ولا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب» .

ومن اطرف ما نجده فى الفكر الاسلامى ردا على الملحدين المنكرين للبعث ما يورده الامام الغزالى (٦٢) من محاورة بين الامام على رضى الله عنه وأحد الملحدين ، قائلا :

«قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : ان كان ما قلته (من انه لا بعث ولا حساب) حقا ، فقد تخلصت وتخلصنا .

«وان كان ما قلناه (من وجود البعث والحساب) حقا فقد تخلصنا وهلكت» .

ويعقب الامام الغزالى على هذا قائلا : وما قال (الامام على) هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله !» .

ويعبر الامام الغزالى عن هذه الفكرة ذاتها قائلا : «ليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر واثبت ثوابا وعقابا .. فان صدق اولئك العقلاء فى أمر الآخرة ، وكذب هو ، فانه يبقى فى عذاب أبدى . وان كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته الا بعض شهواته الدنيا الفانية» (٦٣).

---

(٦٢) انظر احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٦٣) هذه الفكرة هى عين تلك التى عبر عنها بعد الغزالى بقرون الفيلسوف الفرنسى باسكال وتعرف عنده بفكرة الرهان ، وذلك فى كتابه «الخواطر» .

ومن ثم فان ما هو أكثر ضمانا بالنسبة للانسان ان يعتقد بالبعث اذا نظر الى مصيره نظرة عقلية واعية :

ولذلك يبين القرآن لنا ان حياة الانسان مع انكار البعث تكون عبثا لا معنى له ، ولابد من وجود حياة اخرى وراء هذه الحياة اكمل وابقى يلقى فيها الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال ، فحياتنا هذه الدنيوية ليست غاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة لغاية ابعد . يقول تعالى :

«افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون» (سورة المؤمنون آيــة ١١٥) .

«ايحسب الانسان ان يترك سدى» (سورة القيامة ، آية ٣٦) .

يا قوم انما هــذه الحيــاة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار« (سورة غافر ، آية ٣٩) .

«وما هذه الحياة الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهى الحيــوان لو كانوا يعلمون» (سورة العنكبوت ، آية ٦٤) .

ان الانسان اذا لم ير لحياته معنى أو غاية وقع حتما فى التشــاؤم الشديد ، وتحلل من كل القيم ، وتخلى عن انسانيته أو المعنى الذى كرمه الله من اجله ، واصبح لا يعقل شيئا مما حوله ، ولا يبدو له اى امر من أمور حياته معقولا (٦٤) .

---

(٦٤) هذا ما تشير اليه مثلا مسرحيات الكاتب المسرحى المعاصر الذى حاز شهرة كبيرة فى اوروبا صمويل بيكيت (١٩٠٦ —) وهو يركز فى مسرحياته على ان حياة الانسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة . ومن هنا عرف مسرحه بالمسرح اللامعقول . وهذا النوع من الكتاب يعكس لنا الى اى حد تعــانى الحضــارة الاوروبية من أزمة قيم شــديدة قــد تعجل بانهيارها .

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة كوجودية سارتر الى الانسان على انه كائن حائر ، وانه وجود يحمل العــدم فى صميمه . بل ان وجود الانســان عند ســارتر مرادف للقلق الى الحــد الذى يجعله يقول : «نحن قلق» (٦٥) . (Nous sommes angoisse)

والانســـان كما يقول ســــارتر محكوم عليه فى كل لحظة أن يخترع الانسان ، فما الانسان الا ما يصنع نفسه ، وما يريد لنفسه ، وما يتصور نفسه بعد الوجود . انه هو وحده خالق قيمه ومعاييره ، يقول ســـارتر «ويترتب على ذلك أن حريتى هى الاسـاس الوحيد للقيم ، وليس ثمة شىء مطلقا يمكنه أن يلزمنى باصطناع هذه القيمة أو تلك» (٦٦) .

ان الحرية عند سارتر ليست سوى ارادتنا واهوائنا (٦٧) ، وحياتنا لا شىء غير العبث والضياع والانسان عاطفة لا فائدة منها . (٦٨)

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الانسان فتسلبه كل معنى يمكن ان يكرم من اجله .

وسيظل انسان العصر فى هوة الضياع اذا لم يتجاوز القلق الى الايمان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كتلك التى يدعو اليها سارتر ، وهى حرية من شأنها ان تؤدى به الى التردى فى الهوة السحيقة التى يريد سارتر ان يؤول اليها كل وجود انســـانى ، وهى هوة العـــــدم .

وحين يركز فلاسفة هـــذا العصر اهتمـــامهم على ما يســـمونه «مأساة الانسان» فهم ينطلقون من الالحاد . والذى ينطلق من الالحـــاد «كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الانعام ، آية ١٢٠) .

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (سورة النور ، آية ٤٠) .

ان كثيرا من فلسفات العصر اذ تنتهى الى العـــدمية (Nihilism) لا تمثل الا خواء فكريا كفيلا بالقضـــاء على كل ما هو عظيم من انجـــازات الانســـان .

---

65 L'être et le néant, P. 81
66 Ibid, P. 78
67 Ibid P. 570
68 Ibid, P. 708

آداب الانسان فى علاقته بالكون

واذا كان ثمة فى عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياة الانسان معنى ، فانه توجد فيه ايضا فلسفات اخرى تصطبغ فى ظـاهرها بصبغة العلم ولا ترى فى الوجود الا المادة ، وتذهب الى ان العـالم المادى الذى ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وان المادة ليست من نتاج العقل بل ان العقل ما هو الا اسمى نتاج للمادة .

ومثل هـذه الفلسفات الاخيرة انما تولد فى الانسان غرورا لا حـد له بنفسـه وبالعلم وانجازاته . وما تراه الان فى عالمنـا المعـاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا فى اثارة الحروب والتدمير ، انما هو مظهر من مظاهر غرور الانسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابتعاده عن القيم الانسانية التى يمكن ان تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها .

ولا يمكن لانسان العصر ان يستقر نفسيا ويأخـذ وجهته الصحيحة نحو انجاز رسالته على الارض الا اذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره ، ذلك أن الكون كله شـأن من شئون الله تعـالى : «ولله مافى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور» (سـورة آل عمران ، آية ١٠٩) . فهو تعالى خالق الكون بما فيه الانسان ، وهو الذى ركب العقل فى الانسان ليعمر به الارض لا ليدمرها ، وليعرف به خالقه لا ليلحـد ويحاول ان تضع الانسان فى اطار الكون كله وقوانينه الحتمية — لا فى اطار قدرته الخاصة المحدودة — لترى ان ليس للانسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ، لان هذا من شأن خالق الاشياء جميعا ومدبرها وهو الله . وتأمل بعد ذلك عمق المعنى فيما ورد فى القرآن الكريم على لسان ابراهيم ردا على أحـد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه فى نطاق ذلك الاطار الكونى الذى اشرنا اليه .

«الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتـاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا احيى واميت قال ابراهم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـا من المغـرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» (سورة البقرة ، آية ٢٥٨) .

ومن الطبيعي اذا كان الانسان عاجزا بالنسبة لما يجرى فى الكون ان يكون عاجزا بالنسبة لخالق الكون ، يقول تعالى منبها افراد الانسان : «وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء» (سورة العنكبوت ، آيــة ٢٢) .

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما الا بعــد نجــاح الانسان فى الهبوط على سطح القمر ، وربما تساءل الانسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى : « ولا فى السماء» اذ ما شأن الانسان بالسماء؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها ، وهو كائن من شأنه ان يكون دائما على الارض؟

ومن اطرف ما وقفت عليه فى تفسير هــذه الآية عبــارات للامام فخر الدين الرازى يوضح فيها ان الانسان ، لو استطاع ان يصل يوما ما الى السماء ، وهو جائز فانه لن يكون معجزا الله فى هذه الحــالة ايضا ، فلم يطرح من ذهنه امكانية وصول الانسان الى الفضاء الخارجي بما فيه من اجرام ، وقد كان ذلك فى عصره ضربا من ضروب الخيال ، مع انه اصبح فى عصرنا حقيقة واقعة . يقول الرازى ما نصــه : «ما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء «يعنى بالهرب او الثبــات» اى لا تخــرجون من قبضة قدرة الله ، فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات» .. وقدم (تعــالى) الارض على السماء لان هربهم الممكن فى الارض ، ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك ، فيكون لهم صعود فى السماء» (٦٩) .

ان تلك الآية ، وكثير غيرها فى القرآن انما تنبه الانسان الى خلق التواضع ، فمهما تقدم العلم ، ومهما سيطر الانســـان على بعض جوانب الطبيعة ، فلا ينبغى ان يغتر بما وصل اليه ، وانما عليه ان يتذكر دائمـــا ان ثمـــة قوة أكبر من قوته وهى قوة الخالق . وان الكون أوسع من أن يحيط به عقله المحدود .

لقد سأل صحفى امريكى يدعى «فيرك» العـــالم المشهور اينشتين قبيل وفاته (٧٠) عن موضوع الايمان بالله فرد عليه اينشتين قائلا :

---

(٦٩) انظر التفسير الكبير ، فى تفسيره للآية ٢٢ من ســـورة العنــكبوت .

(٧٠) اوردنا نص هذا الحوار وعلقنا عليه فى مجموعة بحوث لنـا نشرتها وزارة الاوقاف بالجمهورية العربية المتحــدة بعنوان «محــاضرات فى علوم القرآن الكريم والعقيدة والاخلاق والتصوف والفلسفة» القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ — ٢٤ . وانظر أيضا كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا عن اينشتين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

أما انا فلست ملحدا ، ولا أدرى ما اذا كان يصح فى القول بأنى من انصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة أوسع نطاقا من عقولنا المحدودة (لاحظ دلالة اعتراف اينشتين هنا بأن العقل البشرى محدود مع ان عقليته تعد اكبر عقلية علمية فى القرن العشرين) .

فعاد فيرك ليقول له : ان الرجل الذى يكتشف أن الزمان والمكان منحنيان ، ويحبس الطاقة فى معادلة واحدة جدير به الا يهوله الوقوف فى وجه غير المحدود .

ويرد عليه اينشتين قائلا : اسمح لى ان أجيب بأن اضرب مثــلا . ان العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجــز عن الاحاطة بالكون . فنحن أشبه الاشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها ، وهى مكتوبة بلغات كثيرة . فالطفل يعلم انه لابد ان يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لهــا ، وهو لا يفهم اللغــات التى قد كتبت بهــا .

ثم ان الطفل يلاحظ ان هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ونظاما خفيا لا يدركه هو ، ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، وهــذا على ما أرى هو موقف العقل الانسانى من الله مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة والتثقيف العالى .

وعاد الصحفى الامريكى ليسأله مرة اخرى :

اليس فى وسع العدد ، حتى اصحاب العقول العظيمة ، ان يحل لنــا هـذا اللغز ؟

فكانت اجابة اينشتين كما يلى :

نرى كونا بديع الترتيب خــاضعا لنواميس معينة . ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الابهام ، وان عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التى تهيمن على مجاميع النجوم !

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك ان أينشتين فى موقفه من مشكلة الكون وخالقه لم يخرج عن الادب الذى رسمه لنا القرآن الكريم فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينـــه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بازاء الخالق تعالى ، لان عقولنا محدودة ولن تستطيع ان تدرك كنهه تعالى . قال تعالى : «لا تدركه الابصــــار وهو يدرك الابصار» (سورة الانعام ، آية ١٠٣) .

ولعلك تدرك ههنا ايضا عمق المعنى فيما حكى عن الجنيد أحـــــد كبار ائمة التصوف فى الاســـــلام ، قال : «اشرف كلمة فى التوحيـــد قول أبى بكر (الصــــديق) : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا العجز عن معرفته» (٧١) .

ان الانسان اذا استطاع ان يجمع بين العلم بالكون والتصوف من حيث هو قيم اخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثـــالية تهدف دائما الى النفاذ الى الحقيقة ، فانه يصل الى ذروة الكمال .

والتصوف الحقيقى علاج للفرد وللمجتمع ، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على راسها الغرور بنفســـه وبعلمه وبامكانيـــاته ، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوعا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح .

لقد بدات مجتمعاتنا ، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى ، واصبحت فى عصر سيادة القوة المـــادية وحدهـــا تتشكك فى القيم الانســانية الرفيعة ، هل لها وجود ام انها وهم من الاوهام! لقد اصبح الناس فى عصرنا — اللهم الا قلة واعيد — ينظـــرون الى كل شيء على ضوء المادة ويقيسون كل شيء بمقياس الحس .

ويقيننا ان الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلتهم به الدنيا الى تدبر

---

(٧١) الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ .

ما في الاسلام من المثل الروحية ، ولو آمنوا بان وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله ، وله قيمة ومعاييره لغيزوا من حكمهم على الاشياء ولوجدوا الراحة النفسية بعد العنــاء ، ولاقبلوا على حيــاتهم في تفاؤل وابتسام ، ولاندفعوا الى العمل المثمر في همة وثبات .

ان التصوف منهج كامل في الحياة ، والصــوفي المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحيــاة المجتمع الذي يعيش فيه ، بل هو الذى يستعين بحيــاة التعبد على حيــاة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح ، والتسوف بهذا المعنى «فلسفة ايجــابية» تضفى على حيــاة الانسان معنى ساميا .

لهذا لا ينبغى ان يظن بأن الصوفية قوم سلبيون يصرفون النــاس عن الكون المادى وعلومه الى الاغراق في العبادة والانعزالية عن المجتمع فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الاسلام ، فالتصوف الاســلامى يعبر عن قيم الاسلام ، والاســلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الاخروى ، ولا يصرف الناس عن الاخــذ بأسباب الدنيا وبخيراتها «قل من حرم زينة الله التى اخرج لعبادة والطيبات من الرزق» (سورة الاعراف ، آيــة ٣٢) .

ان نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ذات مغزى اخلاقى بعيد ، فهم يريدون ان يبينوا للناس ان الكون مجزد شأن من شئون الله ، ومصيره حتما الى الفناء ، فلا ينبغى على الانسان العاقل ان يتعلق نفسيا بالكون الى حد عبادته ، يقول تعالى :

«كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (ســورة الرحمن ، آية ٢٦ — ٢٧) .

وكذلك لا ينبغى على الانســــان ان يغتر بنفســه وبعلمه ، يقول تعــــالى :

«ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبــال طولا» (سورة الاسراء ، آية ٣٧) .

«وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

ولابد من تطهير القلب عن اخلاقيـــاته الذميمة ، وعن التعلق بكل الاغيار العدمية (جمع غير ، ويشير بها الصوفية الى كل ما ســوى الله) أو الاكوان ، لتشرق فى هــذا القلب المعرفة الحقيقة بالله ، والى ذلك المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله : «كيف يشرق قلب صــور الاكوان منطبعة فى مرآته؟!»

«أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع ان يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنــابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته ؟!» (٧٢) .

لابد اذن من أن يتفكر الانسان فيما يشاهده فى الاكوان من دلالة على وجود الله ، يقول ابن عطاء الله : «الفكرة سير القلب فى ميــادين الاغيــــار» (٧٣) .

ويوضح لنا ابن عباد الرندى معنى هذه الحكمة قائلا :

«للفكرة التى الزمها العبد وحض عليها هى سير القلب فى ميادين الاغيار فقط ، وهى مخلوقات الله ومصنوعاته .

«واما الفكرة فى ذات الله فلا سبيل اليها ، يعتبر المتفــكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته» .

«روى عن ابن عبــاس رضى الله عنهمــا ان رسول الله (ص) ابصر قوما ، فقال ، مالكم؟ فقالوا : نتفكر فى الخالق : قال ، تفكروا فى خلقه ، ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره» (٧٤) .

---

(٧٢) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢٠ .
(٧٣) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ص ٩٥ .
(٧٤) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

واذا كان الماديون فى عصرنا هذا وفى كل عصر لا يعتدون الا بالحس. ولا يؤمنون الا بالعالم المادى ، فان الصوفية على العكس من ذلك يرون ان العالم المادى ليس غاية فى ذاته وانما وراءه علة صانعة حكيمة مدبرة . صحيح ان الله تعالى قد أباح للانسان ان يشتغل بالبحث فى المكونات ، أو بالعلم المادى ، ولكنه امره فى نفس الوقت بعدم الوقوف عند حد المكونات ، وانما عليه ان يتجاوزها الى ما وراءها من الاسرار ، وقد ضمن ابن عطاء الله هذا المعنى فى قوله «اباح لك ان تنظر ما فى المكونات ، وما أذن لك ان تقف مع ذوات المكونات» «قل انظروا ماذا فى السماوات» (سورة يونس ، آية ١٠١) . فتح باب الافهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام» (٧٥) .

ان «اشبه شيء بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيرة وجود الظلال ، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم . واذا ثبتت ظلية الاثار «أى الكائنات» لم تنسخ أحدية المؤثر (الله) ، اذ الشيء انما يشفع بمثله ، ويضم الى شكله» (٧٦) .

كل ما فى الكون اذن ناطق بوحدانية الله ، يقول ابن الفارض فى «التائية الكبرى» .

والسنة الاكوان ان كنت واعيا
شهود بتوحيدى بحال فصيحة

وكيف يكون للكائنات وجود حقيقى مع الله و «الكائنات لا يثبت لها رتبة الوجود المطلق ، لأن الوجود الحق هو لله وله لاحدية . انما للعوالم الوجود من حيث ما اثبت لها ، فاعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه فى نفسه» (٧٧) .

---

(٧٥) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .
(٧٦) لطائف المنن ، القاهرة ١٣٣٢ هـ ، ص ١١٤ — ١١٥ .
(٧٧) لطائف المنن ، ص ١١٤ .

ويمضي بعض الصوفية من أصحاب وحـــدة الوجود (Pantheism) كابن عربى الى حد وصف الكون بأنه محض خيال اذا نظرنا اليه فى ذاته ، أما اذا نظرنا اليه من حيث هو مظهر لتجلى الحق باســـمائه الالهية ، فانه يصبح حقيقة ، والى هذا يشير بقوله :

انمـــــا الكون خيــــــال
وهـــو حق فى الحقيقـــــــة

والذى يفهم هـــــــــــذا
حـــــاز أسرار الطريقـــــة (٧٨)

ان هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لاول وهلة ، فان صورة الكون بعـــد نظرية اينشتين لم تعـــد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصـــوفية ، ما دامت الموجودات فيه ذرات ، والذرات تتحلل الى اشعاعات ، وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها انما هو أمر راجع الى ادراكنا فقط وليس الى حقائقها .

ولولا العلة التى شاءت ان تاتلف خيوط احـــداث هـــذه الموجودات لتبرز الى العالم فى صورتها المدركة لنا ، لما كان لهذه الموجــودات وجود ولذلك يقول ابن عطاء الله : «لولا ظهوره (أى الله) فى المكونات ما وقع عليها وجود ابصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» (٧٩) .

وما اعمق المعنى أيضا فى قوله :

«الكون كله ظلمة ، وانما اناره ظهور الحق فيه ، فمن ، رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده او قبله او بعده ، فقد أعوزه وجود الانوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» (٨٠) .

---

(٧٨) ابن عربى : نصـــوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

(٧٩) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .
(٨٠) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

وقد كشف ابن عباد الرندى عن الاغوار البعيدة لمعانى هذه الحكمة وما تتضمنه من الاشارات الى اختلاف مناهج العارفين فى نظرتهم الى الكون ومعرفتهم بخالقه ، اذ يقول :

«ثم اختلفت أحوال الناس ههنا :

«فمنهم من لم يشـــاهد الا الاكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ، هذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات (كأنى به يشير الى الحسيين من علماء عصرنا وفلاسفته) .

ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكون ، ثم هم فى مشاهدتهم اياه فـــرق :

«فمنهم من شـــاهد المكون قبل الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار (يشير هنا الى بعض الصوفية الذين يستدلون بالله على الكائنات ، ومن غريب الاتفاق أن يكون هـــذا هو نفس اتجاه الفيلســوف الفرنسى ديكارت فى سيره من اثبات وجود الله الى اثبات حقيقة العالم الخـــارجى) .

ومنهم من شــــاهده (أى المكون) بعد الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر (يشير هنا الى المتكلمين والفلاسفة ومن نحـــا نحوهم فى اثبات وجود الله بواسطة الاســـتدلال العقلى اذ يصعدون من الكائنات الى مكونها) .

«ومنهم من شاهده مع الاكوان . والمعية ههنا اما معية إتصـــال ، وهى شهوده فى الاكوان ، واما معية انفصال وهى شهوده عند الاكوان .

«وهـــذه الظروف (المذكورة فى حكمة ابن عطاء الله) ليست بزمانية ولا مكانية ، لان الزمان والمكان من جملة الاكوان» (٨١) .

---

(٨١) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

ان نظرة بعض الصوفية الى الكون على هذا النحو تلتقى مع العلم . فهم يريدون القول بان الكون ، فى ابعاده الشاسعة التى لا يحيط بها عقل الانسان ، لا ينبغى ان يكون خاضعا لتصوراتنا نحن عن الزمان والمكان لانهما — على حد تعبير الرندى — من جملة الاكوان ، والاكوان لا توصف بالوجود الحقيقى . فالزمان والمكان اذن امران نسبيان لا وجود لهما فى الحقيقة الا من حيث ما يدرك الانسان بهما ما حوله من العالم المحسوس وموجوداته .

خلاصة القول ان الصوفية يعتبرون الوقوف مع موجودات هذا الكون مع الغيبة عن ادراك المكون مما لا يليق بالانسان ، لان كل ما فى هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمة حجاب بين الانسان والله ، لان الله متجل فى الموجودات على اختلافها و «كيف يحتجب الحق بشىء ، والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر؟!» (٨٢)

الحجاب اذن فينا نحن ، فى شهواتنا واهوائنا ، ولو تخلصنا منها لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار . وبهذا ايضا تتحقق حريتنا الجديرة بنا . وما أعمق المعنى فيما يقوله ابن عطاء الله :

«انت مع الاكوان مالم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الاكوان معك» (٨٣) .

هناك اذن «فرق ما بين كونك مع الاكوان ، وكون الاكوان معك .

«فان كونك مع الاكوان يقتضى تقييدك بها ، وحاجتك اليها ، فأنت بذلك عبد لها ، ثم هى خاذلتك ومسلمتك احوج ما تكون اليها ، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون .

«وكون الاكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناءك عنها (هذا هو المعنى الحقيقى للزهد فى الاسلام ، وهو أن تملك الشىء ولا تكون له عبدا فى نفس الوقت) ، فأنت حينئذ حر عنها ، وهى محتاجة اليك وخادمة لك» (٨٤) .

---

(٨٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٥٠ .
(٨٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
(٨٤) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

وقد يتبادر الى الذهن أن الصوفية يهونون من شأن الانسان ومكانته في الكون ، كما يزهدونه في الكون نفسه . وليس ثمة شيء ابعد عن الحقيقة من هذا .

وكيف يزهد الصوفية الانسان في الكون ، والكون مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما اليها؟

وكيف يهون الصوفية من شأن الانسان وهم يعلمون انه خليفة الله على هذه الارض؟

لابد ان يكون وراء كلامهم عن الكون والانسان غايات بعيدة ، فهم يريدون للانسان في علاقته بالكون ان يكون خاضعا لقيم اخلاقية معينة ، فلا يتعالى ولا يطغى ، ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بامكانياته ، انهم كذلك يريدون له أن يتحرر من عبودية الركون الى العالم المحسوس وملذاته لينطلق الى فضاء المعرفة بخالقه .

انهم كاطباء النفوس ، يعلمون الكثير عن نواحي الضعف الخلقي في الانسان ، فيريدون علاجها وتلافي اسبابها ، لما يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالانسان ذاته وبمجتمعه ، الم يقل الله تعالى :

«وخلق الانسان ضعيفا» (سورة النساء ، آية ٢٨) .

«وكان الانسان عجولا» (سورة الاسراء ، آية ١١) .

«وكان الانسان أكثر شيء جدلا» (سورة الكهف ، آية ٥٤) .

«كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى» (سورة العلق ، آية ٦ — ٧)

وهذه الآيات انما تصور الانسان حين ينحرف في سيره عن الوجهة التي يريدها الله له .

اما الانسان من حيث ما يحقق انسانيته بالعلم وقيم الاخلاق فلا حدود لارتقائه وتقدمه .

انه صورة مصغرة للكون كله جـامعة لاسراره (٨٥) ، اليس هو الكائن الوحيد القادر على تصفح موجودات هذا العالم ومعرفة اسرارها بمـا اودعه الله فيه من الاستعداد لذلك؟

ان الكون المادى وان وسع الانسـان من حيث جسمه المادى الا انه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية ، يقول ابن عطاء الله :

«انما وسـعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحـانيتك» (٨٦) .

«جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وانك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته» (٨٧)

وليعذرنا القارىء اذا كنا قد أطلنـا الحديث بعض الشيء عن نظـرة صوفية الاسـلام الى الكون والانسان ، فلقد كان هـدفنا ان نظهره على ما فى الفكر الاسلامى من نظرة عميقة واعية الى الكون والانسان تستند الى قيم خلقية رفيعة ، وتنطوى على نزعة مثالية تهدف الى النفاذ الى الحقيقة العليا ، وهى فى نفس الوقت من الزم ما يكون لمجتمعاتنا فى هذه المرحلة من تطورها لتحد من غلواء المذاهب المادية ، وشطط المذاهب العبثية التى افتتن بها البعض فى عصرنا .

ومن الخطأ فى رأينا ان نعزل العلم عن التصوف أو القيم الاخلاقيـة بدعوى الموضوعية ، فما الذى يمنع من ان يكون العالم بالكون وموجوداته

---

(٨٥) لذلك يسمى بعض القـدماء الانسـان بالعـالم الاصغر . يقول التهانوى : «وفى أسرار الفاتحة قد يقسم العـالم الى الكبير والصغير ، واختلف فى تفسيرهما ، فقال بعضهم : العـالم الكبير هو مـا فوق السماوات ، والصغير هو ما تحتهـا ، وقيل : الكبير ملكوت السـماوات والارض وما بينهما ، والعالم الصغير هو الانسان» ، كشاف أصطلاحات الفنون ، مادة : «العالم» .

(٨٦) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٦ .

(٨٧) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

مؤمنا بالله ، ومتخلقا بكل خلق رفيع؟ الا يكون هذا ضمانا لعدم انحراف العلم في عصرنا عن مساره الطبيعي ، وهو نفع الانسان ، الى استخـــدامه في رور لا يعلم الا الله وحده ماذا سيكون مداها في المستقبل؟

ان الامتزاج الحقيقي بين الصـــــوفي ورجل العلم هو — في رأى الفيلسوف المعاصر برتراند رسل (١) وليس في رأينا وحدنا — قمة السمو ، وهو شيء يمكن تحققه عي عالم الفكر .

وتأمل فيما يقوله رسل ايضا : «اذا كانت لدينا الرؤية الصـــــوفية للعالم ، وما يتجلى فيه من المرائي ، على أنه يكتسي بنور سماوى ، فانه يمكن القول بوجود خير اسمى اعلى من ذلك الذى يتطلبه الفعل ، وان ذلك الخير يغمر العالم كله . وهذا الحب الكلى لكل ما يوجد ، ذو أهمية قصـــوى من حيث السلوك والسعادة في الحياة ، ويعطي للعاطفة الصوفية قيمة لا يمكن تقديرهـــــا؟ (٨٨) .

• • •

---

(٨٨) انظر بحث برتراند رسل (Mysticism and logic)
وقد نشرنا ملخصة مع دراســــة تحليلية له في بحث لنـــا نشر بمجلة «الفكر المعاصر» القاهرة : العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، وجـــدير بالذكر ان العدد كله عن رسل وفلسفته .

ثبت باهم المراجع

١ ـــ القرآن الكريم .

٢ ـــ ابن حـــزم : الفصل فى الملل والاهــواء والنحل ، القـــاهره ١٣١٧ هـ .

٣ ـــ ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٤ ـــ ابن رشد : الكشف عن منـــاهج الادلة فى بيـــان عقائد الملة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٥ ـــ ابن عباد الرندى : شرح الحكم العطائية المعروف بغيث المواهب العلية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٦ ـــ ابن عربى : فصـــوص الحـــكم ، نشر وتحقق وتعليق الاستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ م .

٧ ـــ ابن عطاء الله الســـكندرى . التنـــويز فى اسقاط التـــدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

٨ ـــ ابن عطاء الله الســـكندرى : الحـــكم ، مع شرح الرنـــدى ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٩ ـــ ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

١٠ ـــ ابو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى ، وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩

١١ ــ ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٢ ــ التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ هـ .

١٣ ــ الجرجانى : التعريفات ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٤ ــ الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت الكويت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م .

١٥ ــ دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٦ ــ الشهرستانى : الملل والنحل ، بهامش الفصل لابن حزم ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٧ ــ الشيبانى : تيسير الوصول الى علم الاصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٨ ــ صاعد الاندلسى : طبقات الامم ، نشر المكتبة الحيدرية بالنجف الاشرف ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

١٩ ــ الصنعانى (بدر الدين) : ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان القاهرة ١٩٣١ م .

٢٠ ــ الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٢١ ــ الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٢٢ ــ الغزالى : المستصفى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٢٣ ــ فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٤ ــ الكندى : الرسائل ، نشر وتحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٢٥ ــ الله يتجلى فى عصر العلم ، مجمــوعة مقالات لبعض العلمــاء المعاصرين ، نشرها جون كلوفر مونسما ، نشر دار احيــاء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٦ ــ شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية لشــارح مجهول (يرجح انه الاذرعى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٦ هـ) المطبعــة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ .

بعض المراجع الاجنبية الوارد ذكرها فى البحث :

(1) Descartes (R) : Discours de la méthode, ed joseph Gibert.
(2) Descartes (R) : Les Principes de la Philosophie ed. joseph Gibert.
(3) Lalande (A) : Vocalulaire technique et critique de la philosophie, Paris 1956.
(4) Malbranche : Entretiens métaphysiques, ed. Fontana.
(5) Russell (B) : mysticism and logic. London 1914. in Selected Papers. The modern Library, 137. New York, 1927.
(6) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant 1966 Edition gallimard, 1943, Offset—Aubin à Poitiers (Vienne), 1965.